جامعة: جنوب الوادي-فرع الغردقة
كلية التربية

محاضرات في مقرر
مكتبة عربية

الفرقة: الأولى عام لغة عربية

إعداد/
قسم اللغة العربية
٢٠٢٢م/٢٠٢٣م

بيانات المقرر:

الكلية: التربية بالغردقة.

الفرقة: الأولى.

التخصص: عام لغة عربية.

التاريخ: ٢٠٢٢-٢٠٢٣م.

عدد الصفحات: ١١١ صفحة.

عدد ساعات المقرر: ٦ ساعات.

الإعداد: قسم اللغة العربية.

****

رؤية الكلية:

كلية التربية بالغردقة مؤسسة رائدة محليًا ودوليًا في مجالات التعليم، والبحث العلمي وخدمة المجتمع، بما يؤهلها للمنافسة علي المستوي: المحلي، والإقليمي، والعالمي.

رسالة الكلية:

تلتزم كلية التربية بالغردقة بإعداد المعلم أكاديميًا ومهنيًا وثقافيًا من خلال برامجها المتميزة بما يؤهله للمنافسة والتميز في مجتمع المعرفة والتكنولوجيا، ومواجهة متطلبات سوق العمل محليًا وإقليميًا، وتهتم بتطوير مهارات الباحثين بما يحقق التنمية المهنية المستدامة، وتوفير خدمات تربوية لتحقيق الشراكة بين الكلية والمجتمع.

****

الفصل الأول
في معرفة المخطوطات

تحقيق المخطوطات(١)

يعنى فن تحقيق المخطوطات بإظهار الكتب المخطوطة مطبوعة، مضبوطة، خالية نصوصها من التصحيف والتحريف، مخدومة في حلة قشيبة، تُيَسِّرُ سبل الانتفاع بها وذلك على الصورة التي أرادها مؤلفوها أو أقرب ما تكون إلى ذلك ولا يُدرَكُ هذا المعنى إلا بعناء وصبر على البحث والتمحيص، وأصل التحقيق كما قال أهل اللغةً: تحقق عنده الخبر أي صح، وحقق قوله وظنه تحقيقا أي صدقه، وكلام محقق أي رصين. وحققت الشيء تحقيقا إذا صدقت قائله.

ومن هنا يمكن وضع مفهوم لمصطلح التحقيق من معناه اللغوي بقولنا: إثبات الشيء وإحكامه وتصحيحه، والتيقن من مصدره.

وهناك تعريف لمصطلح –تحقيق المخطوطات– قال به عبد السلام هارون رحمه الله تعالى وهو: "بذل عناية خاصة بالمخطوطات حتى يمكن التثبت من استيفائها لشرائط معينة، فالكتاب المحقق هو الذي صح عنوانه واسم مؤلفه ونسبة الكتاب إليه، وكان متنه أقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها مؤلفه".

وبعد هذا فللمحقق صفات عليه االاتزام بها، فمن تحلّى بمثلها ملك أسباب التحقيق ومن فقدها، أو فقد بعضها، قصرت عنده هذه الملكة وعسرت عليه رموز المخطوطات وسُبُل نشرها وهذه الصفات، هي:

أولا: الأمانة في أداء النص صحيحا من غير زيادة أو نقصان: فالمحقق بمثابة راوية للكتاب الذي يرويه بطريقة التلقي عن المؤلف، وعلى المحقق ألا يجيز لنفسه التصرف في المخطوطات التي بين يديه فيُعَدِّلَ في عبارتها أو أساليبها.

---

١ - من مقال للدكتور محمد نبهان ابراهيم الهيتي - جامعة الأنبار. "بتصرف".

ويتعين عليه البعد كل البعد عن الأهواء الشخصية والمذهبية أو العبث بإخراجها على أي شكل أوصورة رغبة في الاستكثار وتحقيق المكاسب المادية أو بالسطو على جهود الآخرين، فعليه أن يكون أمينا في كل مراحل تحقيقه للمخطوط.

ثانيا: الصبر والأناة : فقد يكون تحقيق كتاب في أكثر الأحيان أشق على الأنفس من تصنيف كتاب جديد فالصبر والجلد وسعة الصدر أمور أساسية يجب أن يتحلى بها الباحث المحقق.

ثالثا: المؤهلات العلمية : ذلك بالتمكن من العلم الذي يخوض غماره والخبرة بالعمل الذي يمارسه وحُسن الفهم لما يقرؤه، لذلك على صاحب كل تخصص معين أن يفتش عما يخدم تخصصه ليبدع في تحقيقه.

وذلك:

١ . أن يكون ذا ثقافة واسعة بالعلم الذي يحقق فيه الكتاب ودرايةٍ بتاريخه وما أُلِّفَ فيه من كتب.

٢ . أن يكون ذا خبرة بلغة أهل الفن الذي يحقق فيه، ومهما يكن العلم الذي يحقق فيه فإن على المحقق إتقان اللغة العربية نحواً ولغةً.

رابعا: التواضع واستعداده للحوار والمناقشة والبعد عن التمسك بالرأي والوقوف عليه، والتزمت لرأي هو مقتنع به.

خامسا: أن يكون عارفاً بأنواع الخطوط العربية و تاريخ تطورها، أو على الأقل أن يكون عنده حسٌ مرهفٌ بهذه الخطوط عن طريق الاطلاع عليها أو على أغلبها.

سادسا: أن يتبع القواعد الأساسية لتحقيق المخطوطات وأصول نشر الكتب.

اختيار المخطوط:

قلنا قبل قليل على المحقق أن يكون موضوع الكتاب المزمع تحقيقه من ضمن تخصصه كي يكون بارعا ومبدعا به؛ لأن مصطلحات كل علم لا يدركها إلا المختص بها، ثم إذا كان في المخطوط تحريف سَهُلَ على المتخصصين تلافيه.

ومن متممات التحقيق أن يتأكد أن للكتاب نسخا أو نسخةً – فريدةً – على الأقل مخطوطة متوافرة يسهل الحصول عليها وألا يكون من الكتب المفقودة وأن يأخذ فكرة عنه من الكتب التي أشارت إليه أو ذكرته، لكن هناك نقطة أود الاشارة إليها، وهي ان هناك بعضا من المخطوطات تم طبعها كما هي من غير تمحيص ولا تدقيق ولا تحقيق، وللمحقق أن يستفيد من المطبوع حتى وإن عثر على أكثر من نسخة، فيجعل المطبوع نسخة يقابل عليها، ويقوّم المطبوع إذا وجد هناك خطأ أو سقطاً أو ارتباكا في العبارة، وعمله في المقابلة على المطبوع يجب ان يكون بعد نسخ المخطوط.

وإذا ما استقر الباحث على مخطوط معين وأحب ان يعمل على تحقيقه، فعليه أن يفتش عنها في المضان التي من المرجح العثور عليها كفهارس المخطوطات الموجودة في كثير من المكتبات، وكالكتب المختصة بهذا المجال ككتاب فؤاد سزكين (تاريخ التراث العربي)، بل هناك مراكز ومعاهد خدمت هذا الجانب يمكن الرجوع إليها للوصول إلى المخطوط، كمركز الملك فيصل في السعودية ومكتبة اسطنبول المركزية ومركز جمعة الماجد في دبي، والمكتبات المتوفرة في بلدنا العراق كمكتبة الوقف السني – بغداد – ومكتبة جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني ومكتبة أوقاف الموصل، والأهم من هذا وذاك مراجعة المركز العراقي المتخصص بالمخطوطات الواقع في الصالحية والمسمى (الدار العراقيةللمخطوطات) وكما هناك مخطوطات نادرة في مكتبة المتحف العراقي الوطني.

والحقيقة ان هناك من التسهيلات الكبيرة في زماننا ما لم تكن متوافرا في السابق، حيث يمكن للباحث أن يدخل إلى عالم الأنترنيت ويصل إلى المراكز والمعاهد المتخصصة والمنتشرة في أنحاء العالم ويمكنه في بعض الأحيان مراسلة تلك المراكز والاستعانة بها وهو جالس في بيته.

وبعد الانتهاء من جمع ما تيسر للمحقق تحصيله من النسخ فإن المرحلة التالية المتوجبة عليه هي قيامه بدراسة هذه النسخ و تقوم هذه الدراسة على معرفة ما في النسخ من تباين في الخط والعصر الذي كتبت فيه وتوثيق هذه النسخ لمعرفة تباينها واختلافها، ولا بد من الإشارة إلى وجوب الاستفادة من فهارس المخطوطات التي تبين الناسخ وتاريخ النسخ إذ إن دراستها دراسة أولية يمكّن الباحث من اختيار النسخ التي يحتاج إلى تصويرها و إن كان الشك يتطرق في كثير من الأحيان إلى صحة الوارد فيها سواء بأسماء النساخ أو تاريخ النسخ أو مكانه أو نحو ذلك من المعلومات التي توصف بها المخطوطة.

ترتيب النسخ

بعد أن يقوم المحقق بجمع النسخ الخطية و دراستها يقوم بعملية ترتيب أفضلي للنسخ وذلك حسب الترتيب الآتي:

أولا: نسخة المؤلف – إن وجدت – والتي نسميها (النسخة الأم) أو (النسخة الأصلية) ويجب ملاحظة اعتماد آخر نسخة كتبها المؤلف فقد يكتب المؤلف كتابه ثم يضيف إليه في ضوء قراءته له وتدريسه لغيره ومراجعته إياه .

ثانيا: تلي نسخة المؤلف نسخة قرأها المؤلف أو قرئت عليه وأثبت بخطه أنه قرأها أو قرئت عليه، أو أثبت الناسخ أنها مقروءة على المؤلف .

ثالثا: تليها النسخة التي نقلت عن نسخة المصنف أو قوبلت عليها

رابعا: ثم نسخة كتبت في عصر المصنف مقروءة على عالم متقن ضابط.

خامسا: ثم نسخة كتبت في عصر المصنف غير مقروءة على أي من العلماء.

وفي هاتين الحالتين تُقَدَّمُ النسخة الأقدم بالنظر إلى قِدَمِ العالم الذي كتبها أو قرأها أو قُرِئت عليه، وربما نجد نسخةً متأخرةً لكنها مضبوطة الشكل كاملة ليس فيها أي سقط أو نقص، فهذه تُقَدَّمُ على النسخة التي يعتريها تصحيف او تحريف أو سقط.

وأما كيفية التعرف على النسخة الأقدم:

فعن طريق معرفة تاريخ النسخ المثبت على المخطوط فغالبا ما يختم النساخ كلامهم بعد انتهاء المخطوط بذكر تاريخ النسخ واسم الناسخ.

مؤلف وعنوان المخطوط:

لابد للمحقق أن يتثبت من نسبة الكتاب إلى مؤلفه، فهناك طرائق متعددة للوصول إلى حقيقة هذه النسبة:

أولا: أن تشير المراجع والمصادر إلى مؤلف الكتاب وتسميه وتتفق على نسبته إليه، وهنا لاوجود لأية مشكلة حول نسبة الكتاب إلى مؤلفه.

ثانيا: أن ينسب موضوع الكتاب وعنوانه إلى أكثر من مؤلف فتتنازع المصادر وتتردد في نسبة الكتاب لمصنف معين، او أن لا يذكر للكتاب مؤلفٌ، كأن يكون مجهولاً، وفي هذه الحالة هناك خطوات على المحقق أن يتبعها كي يصل إلى حقيقة مؤلف المخطوط الذي بين يديه:

أ . معرفة تاريخ النسخ سواء عن طريق ما هو مثبت على المخطوط أو من الخط إذ يعين ذلك الباحث على معرفة الفترة التي تلت حياة المؤلف أو عاش فيها و ليحذر من أمارات التزوير في الخط التي من الممكن الوقوع فيها نتيجة فعل تجار المخطوطات و الآثار.

ب . معرفة نوع الورق والحبر المستخدمين في المخطوط؛ لأنها تُيَسِّرُ له معاينة المخطوط ماديا.

ج . قراءة المخطوط قراءة متأنية للوقوف على شواهد وقرائن تساعد المحقق على معرفة المؤلف، فهناك من الوقائع ربما تذكر في المخطوط يفهم منها زمن تأليفه أو نسخه.

د . إن كان الكتاب جزءا حديثيا وجب علينا تتبع الراوي الذي يروي عنه المصنف أسانيده وهذا ما يدلنا على معرفة الطبقة التي أخذ المؤلف عنها وبالتالي فإن مراجعة كتب التراجم وتتبع تلاميذ شيوخ المصنف يمكننا من معرفة صاحب الكتاب.

هـ . إن الموضوع الذي يتناوله المصنف يساعدنا بشكل رئيس على معرفة مؤلفه إذا حصرنا العصر الذي أُلف فيه.

و . إن لغة الكتاب أمر مهم جدا في معرفة عصر المؤلف وربما تمكننا اللغة معرفة المؤلف ذاته.

أما مسألة عنوان المخطوط فعلى المحقق أن يتثبت منه بصورة صحيحة لا تقبل الشك، وذلك بالتفتيش عن ذات العنوان الذي وضعه المؤلف نفسه، ولا يجوز له التصرف بأي نوع من أنواع التحريف أو التصحيف على عنوان المخطوط.

وقد يجد الباحث المحقق أن هناك أكثر من عنوان للكتاب المراد تحقيقه، وفي هذه الحالة عليه إجهاد نفسه وفكره للوصول إلى العنوان الصحيح الذي أراده مؤلفه، وذلك من المقارنة والمفاضلة بين النسخ التي حصل عليها واعتمدها في تحقيقه، ومما ذكره المؤرخون والمترجمون له ولمؤلَّفه.

نَسخُ المخطوطِ:

بعد أن تم اختيار المخطوط والحصول على نُسَخِهِ وترتيبها بحسب ما ذكرناه سابقا، وبعد أن تأكدنا من مؤلف هذا المخطوط والتثبت من عنوانه نبدأ بمراحل تحقيقه، وأول عمل نقوم به هو نسخ المخطوط، ويكون بالخطوات الآتية:

أولا: يجب علينا أولاً – اعتماد النسخةِ الأصل أو التي تسمى (الأم) – لدى نَسخِ المخطوط، والنُسَخُ التي تلي النسخةَ الأصل تكون تابعة لها يستفاد منها عند المقابلة، ويتم كتابة المخطوط يدوياً وهو الأفضل أو على آلة الطابعة، فيكتب سطراً ويترك آخراً على الصفحة اليسرى، أما الصفحة اليمنى وهي المقابلة للتي نسخ عليها المخطوط تكون فارغة للهوامش والتعليقات، أو ان يكتب على نصف الصفحة ويترك الباقي للهوامش والتعليقات، ومن البديهي أن يكتب المخطوط على ما جاء بالنسخة الأم (الأصلية) نصا كما هو موجود من غير زيادة أو نقصان.

ثانيا: تُرَقَّمُ لوحاتُ كل نسخة وحدها، ابتداءً من الرقم (١) إلى نهاية المخطوط، واللوحة هي عبارة عن صفحتين متقابلتين تعطى رقما واحدا.

ثالثا: يُعطى رمزٌ لكل نسخة تمّ اعتمادها، كأن يُعطى للنسخة الأولى (الأم) رمز(أ) أو غير ذلك ثم تُعطى بقية النسخ رموزا أخرى، للإشارة إليها في الحاشية عند اللزوم، وعند انتهاء كل صفحة من صفحات النسخ جميعها، فمثلا عند انتهاء الصفحة الأولى من اللوحة الأولى وابتداء الصفحة الثانية من اللوحة نفسها من النسخة (أ) يكتب (أ / ١ / ظ) ويعني أن الكلام انتهى في الصفحة الأولى من اللوحة الأولى وهي (الوجه) ويرمز لها بحرف (و)، وابتدأ الكلام في الصفحة الثانية من اللوحة الأولى وهي (الظهر) ويرمز لها بحرف (ظ).

رابعا: تتم المقابلة بين ما تمّ نَسخُهُ من النسخة الأصل وبين النسخ المتبقية توكيدا لصحة المنسوخ، وتثبيت الصحيح من بعض الكلمات المبهمة أو التي لا تتناسب مع سياق الكلام، ثم يُشارُ إلى كل تصويب او تبيين او توضيح او تصحيح في الهامش ونذكر رمز النسخة التي نقلنا منها الكلمة الصحيحة أو التي رفعنا منها تلك الكلمة.

خامسا: لابد من ملاحظة الإملاء الخطي للمخطوطات، فإن الكتابة القديمة تختلف عن الحديثة في كثير من مظاهرها وفيما يأتي بعض وجوه هذه الاختلافات التي يكثر وجودها في خطوط بعض النساخ:

أ . خلو بعض الحروف المعجمة من النقط أو أن يُنَقِّطُها الناسخ تنقيطاً مخالفاً لما هو عليه حال الكتابة الحديثة مثل: إهمال الفاء والقاف والنون أو نقط الفاء واحدة من أسفل ونقط القاف واحدة من أعلى على طريقة المغاربة والأندلسيين.

ب . حذف الألف أحياناً من وسط الكلمة كما في سليمان وحارث ومالك وإبراهيم وهارون إذ يكتبونها : سليمن . حرث . ملك . إبراهيم . هرون.

ج . حذف الهمزة لاسيما في أواخر الكلمات مثل: دعاء وسماء يكتبونها: دعا . سما.

د . الألف المقصورة يرسمونها في صورة الألف ولا يرسمونها في صورة الياء مثل رمى وسعى ، يكتبونها: رما . سعا.

هـ . لا ينقط النساخ الياء في آخر الكلمة فتشتبه بالألف المقصورة فلا يفرّق القارئ بين أبي بالإضافة وبين أبى بمعنى: امتنع ، ولا بين (الّتقيّ) و (التُقى) و(سويّ) و(سِوى) بل أحياناً ينقطون الألف المقصورة.

و . لا يعتنون بكتابة الألف الفارقة التي تختص بواو الجماعة في أواخر الأفعال مثل)استغفروا)، (لم ينظروا) (اعتبروا).

ز . كثيرا ما يكتب النساخ في كتابة المخطوط تاء التأنيث في آخر الأسماء مفتوحة مثل (نعمة) و (رحمة) يكتبونها (نعمت) و (رحمت) هذه الوجوه و غيرها لا يتقيّد بها المحقق بل يصلحها بما يوافق طريقة الإملاء الحديثة، إلا اذا وردت في نص قرآني فتكتب كما هي.

ح . توضع همزة الابتداء (القطع) ولا يجوز إهمالها في قواعد الإملاء الحديثة.

ط . توضع النقطتان تحت الياء منعاً للالتباس بينها وبين الألف المقصورة مثل (أبي) التي تأتي مضافة إلى كلمة أخرى و (أبى) التي تأتي بمعنى امتنع.

ك . كتابة الأعداد كما هو مطلوب بطريقة الإملاء الحديثة : فمثلا يكتب الناسخ العدد (ثلاث مئة) وعلى المحقق أن يكتبها (ثلثمئة).

سادسا: وضع العناوين :فإذا كان المخطوط خالياً من العناوين أو يذكر المؤلف أحياناً كلمة (فصل) من غير أن يفصح عن المراد منه أو أن يكون الكتاب خالياً أصلاً من الأبواب والفصول فلا مانع للمحقق أن يضع زيادة بين معكوفتين [ ] يضع عليها هامشا ليكتب فيه أسفل الصفحة في الهامش أن هذه الزيادة منه لا من أصل الكتاب.

سابعا: ترقيم المسائل: لأن الناسخ لا يرقم مثل هذه الأمور، وعلى المحقق أن يرقم الأحاديث والأبواب والأخبار والمسائل فإن ذلك من صميم عمله التحقيقي.

وهناك رموز لابد للمحقق أن يعرفها ويعرف أين يستخدمها وهي كما يأتي:

١ – القوسان المزهران ﴿ ﴾ لحصر الآيات القرآنية.

٢ – علامة التنصيص " " وتذكر فيها كل من ما ينقل نصا من قول أو رأي أو تعريف، كما تذكر فيها الأسماء إن وردت في المتن كأسماء الكتب مثلا.

٣ – الخطان القصيران – – تكتب بينهما الجمل المعترضة.

٤ – المعكوفتان [ ] ويكتب فيهما ما يذكره المحقق من لفظ يقتضيه السياق، أو حرف زاده في المتن، فان كانت الزيادة من كتاب معين يذكر في الهامش بانها زيادة من الكتاب الفلاني، وان كانت الزيادة من المحقق نفسه فيكتب ما بين المعكوفتين من زيادتي.

٥ – النقطة (.) توضع للدلالة على نهاية الجملة.

٦ – الفاصلة (،) ولها مواضع منها: بعد لفظ المنادى، وبين جملتين مرتبطتين المعنى، وأقسام الشيء الواحد، وغيرها من المواطن.

٧ – الفاصلة المنقوطة (؛) توضع بعد جملة إذا كان مابعدها سبب لها، كقولك: حسان شاعر مخضرم؛ لأنه عاش في الجاهلية والإسلام.

٨ – النقطتان(:) توضع في مواطن منها: بين الشيء وأقسامه، بعد العناوين الفرعية التي توضع في أول السطر.

٩ – علامة الاستفهام (؟) توضع بعد جملة استفهامية.

١٠ – علامة التعجب (!) توضع بعد جملة تعجب أو تأسف.

وهذه الاستعمالات لعلامات الترقيم لاتعد من التصرف في المتن؛ لأنه يسهل بسببها قراءته، وفهمه.

ثامنا: ينبغي على المحقق ضبط الآيات بالشكل القرآني ووضع اسم السورة الكريمة ورقم الآية في الهامش.

تاسعا: تثبت الأحاديث الواردة في الأصل الخطي كما هي ويشار إلى الخطأ المحتمل فيها بالهامش كي لا يُفتَحَ هذا البابُ فيأتي منه التحريف بإنكار الصواب وتخطئة الصحيح من الحديث، وعلى المحقق ان يركز في تخريجه للأحاديث على الكتب المعتمدة عند اهل المصطلح كالصحاح والسنن وغيرها وبالطريقة التالية:

فعليه ألا يُسرف في ذكر مصادر السنن والمتون، فيكتفي بالصحيحين فإن لم يكن فبالكتب الستة ومسند الإمام أحمد وموطأ الإمام

مالك لتقدمهما ويبدأ بترتيب المصادر حسب أهميتها من حيث الصحة والترتيب التاريخي لوفاة مؤلفيها ويتم العزو إلى رقم الحديث إن كان موجوداً، وأن يُشفع بذكر الباب وراويه من الصحابة، ونقل حكم الحفاظ عليه من صحة أو تحسين أو ضعف أو وضع من كتب التخريج كـ (تلخيص الحبير، ونصب الراية).

إلا أنه في حال عدم وجود المصدر الأساسي مطبوعاً فإنه يُخَرِّجُ الحديث من الكتب المعروفة عند المحدثين بكتب الجوامع مثل (الجامع الكبير للسيوطي) و (كنز العمال) للمتقي الهندي .

أما إذا تطلب شرحٌ للحديث فهناك كمٌ هائلٌ من الكتب التي تبين غريب الحديث ففي كتاب ابن الأثير(النهاية في غريب الحديث) كفاية له ومن أراد التوسع في ذلك ففي كتب شروح الحديث ما يشفي غليل الباحث مثل فتح الباري وعمدة القاري وشرح النووي على صحيح مسلم وغيرها.

عاشرا: تخريج النصوص المقتبسة :فقد ينقل المؤلف نصاً أو يذكر رأياً من كتب مطبوعة أو مخطوطة فإن كانت مطبوعة وجب الرجوع إليها ومقابلتها مع نص المؤلف للتوثق من سلامة النص فقد يكون في أحدهما تحريف أو تصحيف أو سقط.

وإذا كان المصدر المنقول عنه مخطوطاً فإن أمكنه الرجوع إليه رجع وقابل عليه وإن لم يستطع الوصول إليه فليبذل وسعه في العودة إلى المراجع الثانوية التي تعينه على الضبط قدر الإمكان.

وفي جميع الأحوال فإن الإشارة إلى الجزء والصفحة إن كان مطبوعاً ورقم الورقة أو اللوحة إن كان مخطوطا أمرٌ من واجبات التحقيق فضلاً عن ذكر الفروق في هامش التحقيق.

ولابد من التنبيه إلى ان الواجب على المحقق عند توثيقه لأي قول أو رأي نقله صاحب المخطوط أن يرجع إلى المصادر التي سبقت وفاة مؤلفه

حتى وان ذكِرَ المصدر بمتن المخطوط، وهنا أود أن أبين الفرق بين التصحيف والتحريف والخطأ:

فالتصحيف: ما كانت المخالفة فيه لتغيير حرف فأكثر بتَغَيُّرِ النقط مع بقاء صورة الخط : كـ (حميل وجميل).

أما التحريف: فهو ما غُيِّرَ فيه الشكل مع بقاء حروفه:كـ(سَلِيم وسُليم).

أما الخطأ: فهو التغيير في الكلمة أو الجملة الذي يأتي مخالفاً لقواعد الإملاء أو قواعد الصرف أو قواعد النحو وما إلى ذلك.

فإذا وجد المحقق تصحيفا أو تحريفا فعليه ان يصححه وذلك بواحد من خيارين:

الأول: أن تبقى الكلمة المصحفة في النص (متن الكتاب)، ويضع عليها رقما ليذكر صوابها في الهامش، وهي الطريقة الأصح والأقرب للصواب ما خلا الخطأ في الآيات فإنه يصحح في المتن ولا ينبغي أن يجامل فيه أو يحفظ فيه حق مؤلف لم يلتزم الدقة فيما يجب عليه بخلاف نصوص الحديث لكثرة رواياتها.

الثاني: أن تُصَحّحَ الكلمةُ في النص (متن الكتاب) وتُرَقَّم وتُذكَر في الهامش على هيئتها من التصحيف، ومن الأفضل الإشارة إلى نوع الغلط في الهامش .

بقي أن أنبه على أمر مهم وهو: إذا وجد المحقق إضافات في حواشي الكتاب مثلاً فلا يضيفها للمتن بل يكتبها في الهامش ويشير إلى ذلك لأنه قد يكون من عمل النُسّاخ لا مؤلف المخطوط .

حادي عشر: تخريج الشعر :فإذا ورد في الكتاب المحقق شعرٌ أو كان الكتاب في الشعر والأدب فإنه يتطلب من المحقق أن يخرّج الأشعار ويعزوها إلى مصادرها المعتمدة، فإذا كان لواحد من الشعراء الذين وصلت إلينا دواوينهم اكتفينا بالعزو إلى ديوانه ولا ضرورة للاستكثار من المصادر

في مثل هذه الحالة إلا إذا اقتضى الأمر ذلك، وعلى المحقق أن يحاول الوصول إلى قائله إذا لم يكن مذكوراً في الأصل وقد يزيد بعض المحققين فيسرد القصيدة أو يكمل الأبيات الشعرية التي قد يكتفي منها المؤلف ببيت أو أكثر.

ثاني عشر: التعريف بالأعلام والأماكن والمواضع والبلدان والمصادر التي يذكرها المؤلف في مخطوطه، وتكون الترجمة للأعلام المغمورين دون المشهورين فالاشتغال بترجمة الصحابة رضي الله عنهم والأئمة الأربعة ونحوهم من المشهورين تطويل لا داعي له و تحشية لا فائدة منها وإثقال للحواشي، على أنه لو ترجم للكل لا يعد نقصا أو زيادة على التحقيق.

وعلى المحقق أن يُعَرِّفَ بما يحسبه أنه مُستَغلَقٌ ومبهم لا يفهمه القارئ، كشرحِ للكلمات الغريبة؛ لتفاوت فَهمِها عند القراء،لذلك فالمطلوب من المحقق شرح الكلمات بحسب مستوى القارئ، ويعتمد في ذلك على المعجمات العربية المعتمدة مثل (لسان العرب) لابن منظور و(تاج العروس) للزبيدي و(المصباح المنير) للرافعي، وغيرها من كتب التعريف بالمصطلحات وكتب التراجم قبل الاعتماد على المعجمات الحديثة التي ليست لها هذه الصفة مثل المنجد وغيره، وليبذل وسعه في توضيح المكان ونسبته إلى بلده الحالية بذكر الأبعاد كما وصفها الجغرافيون بالمقاييس المترية (المتر والكيلو متر) لا بالمقاييس القديمة مثل الفرسخ و مسيرة يوم و ليلة...إلخ.

كما ينبغي معرفة ما يُشتَبَهُ من أسماء المواضع مثل (البصرة) المعروفة في العراق حيث توجد مدينة أخرى تحمل الاسم نفسه بين طنجة وفاس.

ثالث عشر: مصادر التحقيق: يُعِدُّ المحقق قائمة في آخر الكتاب تتضمن المصادر والمراجع التي استعان بها مع بيان مؤلفيها وناشريها ودور نشرها وطباعتها وسنوات الطبع والنشر ومحققيها ومترجميها.

رابع عشر: الفهارس: صنع الفهارس الفنية المختلفة هي أهم مرشد للباحث في الكتاب المُحقَّق فهي التي تُظهر مكنونات الكتاب وجواهره وتدلُّهُ على مواضع يصعب تحصيلها أحياناً إلا بقراءة الكتاب كله، لذلك تفنن المتقنون من المحققين في تنويع الفهارس نظراً لفائدتها، ولا وجه لحصر أنواع الفهارس الممكن عملها وإنما يحكم ذلك طبيعة الكتاب وحاجة المستفيدين منه.

خامس عشر: مقدمة التحقيق: والتي تُسمّى بالدراسة الخاصة بالمؤلف والكتاب، وهي آخر ما يحرره المحقق، والمعالم الرئيسة للمقدمة تكون بالترجمة للمؤلف، والحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية التي عاشها، وذكر آثاره العلمية وقسما من معاصريه، ثم يذكر المحقق سنة وفاته، بعد ذلك يقدم دراسة موجزة للكتاب، وتوثيق نسبته إلى المؤلف والتأكد من صحة العنوان، وأسلوبه ومنهجه في كتابه، والمصادر التي اعتمدها في كتابه، ثم يذكر المصطلحات التي يستخدمها صاحب المخطوط، ووصف لنسخ المخطوط وقيمة كل منها مشفوعة بالرمز الذي يصطلحه لكلٍّ منها، وبعد ذلك يوضح المحقق منهجه الذي سار عليه في تحقيقه للكتاب، ولا بد أن يشفع ذلك بصور لأوائل وأواخر أوراق المخطوطات المعتمدة توثيقاً لعمل المحقق ولاسيما إذا كانت هناك حواشٍ وتعليقات جانبية عليها.

وفي الختام ومن باب الأمانة العلمية فإني قد اطلعت على جملة من كتب الاختصاص وجمعت منها ما كتبت ليسهل على الباحث والمحقق التَّعَرُّفُ على أهم طرائق تحقيق المخطوطات.

ومن تلك الكتب:

١ – كتاب: "تحقيق المخطوطات بين النظرية والتطبيق" للدكتور فهمي سعد، والدكتور طلال مجذوب.

٢– كتاب: "تحقيق نصوص التراث في القديم والحديث" للدكتور الصادق عبد الرحمن الغرياني.

٣– كتاب: "منهج النقد في علوم الحديث" للدكتور نور الدين عتر.

٤– كتاب: "منهج تحقيق المخطوطات، تأليف إياد خالد الطباع.

٥– كتاب: "المنهاج في تأليف البحوث وتحقيق المخطوطات" للدكتور محمد التونجي.

٦– كتاب: "ضبط النص والتعليق عليه" للدكتور بشار عواد معروف.

٧– كتاب: "قواعد تحقيق المخطوطات" للدكتور صلاح الدين المنجد.

٨– كتاب: "تحقيق النصوص ونشرها" للدكتور عبد السلام محمد هارون.

****

الفصل الثاني
كتب تراثيـــةّ

أولا: كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني

لم ينل كتاب في الأدب العربي شهرة كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني، وهو منذ أن ظهر من ألف عام قل من لم يسمع به، أو يقرأ طرفا منه، أو يعتمد عليه في شيء مما يتصل بالتاريخ والحضارة، وأنفق فيه مؤلفه نصف قرن من الزمان، حتى خرج على الصورة التي هو عليها الآن، وهو كتاب –كما وصفه الفقيه ابن العربي–: جليل القدر، كثير العلم، لم يؤلف مثله قط، وقد يختلف الناس حول ما حواه من أخبار وروايات، لكنهم لا يختلفون حول قيمته باعتباره المصدر الأول لمن يكتبون عن الأدب العربي في عصوره المتقدمة.

نشأة المؤلف وتعليمه:

ينتهي نسب أبي الفرج الأصفهاني إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ولد سنة (٢٨٤هـ = ٨٩٧م) ولا يعرف على وجه اليقين موضع ولادته، فقالوا إنه أصفهاني المولد استنادا إلى لقبه الذي عُرف به واشتهر، وقالوا إنه بغدادي المنشأ والمسكن، ولعل أجداده كانوا يعيشون في أصفهان بعد سقوط دولتهم، ثم نزح أحفادهم إلى بغداد وأقاموا بها، وكان جده محمد بن أحمد الأصفهاني من كبار رجالات سامراء وعلى صلة متينة بوزرائها وأدبائها وكتابها، وكان أبوه الحسين بن محمد يقطن بغداد، ويحرص على طلب العلم والثقافة الشائعة في عصره، وكذلك كان عمه الحسن بن محمد من كبار الكتاب في عصر المتوكل، وروى عنه أبو الفرج كثيرا في كتابه الأغاني، وهو الذي تولى تربيته وتثقيفه.

نسبه:

من ناحية أمه فهو ينتسب إلى آل ثوابة المعروفين في عصرهم بالكتابة والأدب والشعر، وذكر ابن النديم عددا منهم في كتابه الفهرست، وفي هذا الجو المُعبَّق بعطر العلم وأريج الثقافة نشأ أبو الفرج الأصفهاني وتعلم، ثم تطلعت همته إلى مصادر أخرى للمعرفة، فولّى وجهه شطر الكوفة في فترة مبكرة من حياته، وأخذ الحديث والتاريخ واللغة عن شيوخها الكبار من أمثال: مطين بن أيوب، والحسين بن الطيب الشجاعي، ومحمد بن الحسين الكندي مؤدبه في الكوفة...وغيرهم، ثم رجع إلى بغداد وبدأ حياة علمية جادة، وأظهر جلدا وشغفا بالعلم، واتصل بأعداد هائلة من شيوخ بغداد وعلمائها الذين كانت تمتلئ بهم مساجدها، وحسبك أن يكون من شيوخه: يحيى بن علي المنجّم، المتوفى سنة (٣٠٠هـ = ٩١٢م) وكان أديبا ناقدا عالما بالغناء والموسيقى، وأبو عبد الله اليزيدي المتوفى سنة (٣١٠هـ = ٩٢٢م) وكان إماما في النحو والأدب، ومحمد بن جرير الطبري الإمام المؤرخ المفسر الفقيه المتوفى سنة (٣١٠هـ = ٩٢٢م) وعنه روى أبو فرج الأصفهاني معظم أخبار العرب القديمة ومغازي الرسول –صلى الله عليه وسلم– وأشعارا لشعراء الدعوة الإسلامية، ولازم أيضا عددا من كبار أئمة اللغة مثل: علي بن سليمان الأخفش، المتوفى سنة (٣١٥هـ = ٩٢٧م) وأبي بكر الأنباري، المتوفى سنة (٣٢٨هـ = ٩٣٩م) وابن دريد العالم اللغوي الفذ، المتوفى سنة (٣٢١هـ = ٩٣٣م) وأبي بكر الصولي، المتوفى سنة (٣٣٥هـ = ٩٤٦م) وصاحب كتابيْ: "الأوراق"، و"أدب الكاتب". في موكب العلم والتدريس وبعد هذا التحصيل العلمي الجاد والإصرار على الدرس جلس للتدريس في نحو سنة (٣١٣هـ = ٩٢٥م)، وكان قد انتهى من كتابة أول مؤلفاته "مقاتل الطالبيين" فجلس لإملائه على تلاميذه الذين اتصلوا به ولازموه، بعد أن ذاعت شهرته، وقصد حلقاته عدد كبير من المحدثين والأدباء والشعراء، وتذكر المصادر التاريخية أن لأبي فرج صلات بملوك الأندلس من بني

أمية، يؤلف لهم الكتب ويرسلها لهم فيصلونه بجوائز كبيرة، وأما صلته بسيف الدولة فليس في أخباره ما يوضح حقيقتها، ويلقي الضوء عليها سوى أنه أهداه كتاب الأغاني فأعطاه عليه ألف دينار.

شخصيته:

رسمت كتب المعاصرين له صورة ذات ألوان قاتمة وظلال شاحبة فهو لا يعتني بمظهره، يبدو دائما متسخ الثياب، قذرا في شكله وفعله، بعيدا عن مظاهر السلوك الحميد والتصرف الأنيق الذي يتصف به دائما من ينادم الملوك والأمراء. وأيا ما كان الرأي حول هذه الصفات ومدى مبالغتها في رسم هذه الصورة السيئة، فإن هناك إجماعا من المؤرخين على سعة علمه، وكثرة محفوظه، وجودة شعره، وكثرة تأليفه، وأضافوا إلى ذلك أنه كانت له رحمة وألفة بصنوف الحيوان، يأنس بصحبتها، ويعالجها إذا أصابتها العلة، ويأسى لموتها، وقد ألف أبو الفرج الأصفهاني أكثر من ٣٠ كتابا، لم تسلم كلها من عوادي الزمن، ووصل إلينا منها: "الإماء الشواعر"، و"مقاتل الطالبيين" وتناول فيه سيرة أكثر من ٢٠٠ من قتلى الطالبيين وشهدائهم منذ زمن الرسول –صلى الله عليه وسلم– إلى الوقت الذي انتهى فيه من تأليفه سنة (٣١٣هـ = ٩٢٥م)، وكانت شخصية علي بن أبي طالب هي أهم شخصية تناولها بالترجمة، فأفرد لها صفحات كثيرة، ثم تتابعت شخصيات العلويين لتشمل الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب وغيرهما من آل البيت. كتاب الأغاني رسوم من كتاب الأغاني غير أن أهم كتبه هو "الأغاني" الذي نال شهرة واسعة وصِيتا ذائعا لم ينله كتاب في الأدب العربي منذ أن ظهر للناس في القرن الرابع الهجري حتى يومنا هذا، ووصفه ابن خلدون بأنه: "ديوان العرب، وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن...".

ويذكر لنا أبو الفرج الباعث على تأليف كتابه في مقدمته، فيقول: "والذي بعثني على تأليفه أن رئيسا من رؤسائنا كلفني جمعه له، وعرفني أنه بلغه أن الكتاب المنسوب إلى إسحاق الموصلي في الغناء مدفوع أن يكون من تأليفه، وهو مع ذلك قليل الفائدة، وأنه شاك في صحته...".

موضوع الكتاب:

كتاب الأغاني كتاب موسوعي، جمع في الأدب، والغناء، والشعر، مبتدئا بالعصر الجاهلي، ثم صدر الإسلام، ثم العهد الأموي، والعباسي، إلى عهد الخليفة العباسي المعتضد بالله، المتوفى سنة ٢٨٩ هجرية، بعدها لم يرد عن الخلفاء أو الأمراء أو غيرهم شيء، وقد تناول فيه علوما شتى، وأغراضًا متنوعة من تفسير، وحديث، ولغة، وسير وأخبار، ومسامرات، وأحوال لسراة الناس وكبرائهم من خلفاء وأمراء ووزراء وعلماء وغيرهم، ثم تدوينه وجمعه عددًا من الأغاني والأصوات العربية وما يتبعها من نصوصها الشعرية وألحانها، وقد بنى مادة الكتاب على مائة صوت كان الرشيد أمر مغنيَه إبراهيم الموصلي أن ينتخبها له، وضمَّ إليها أبو الفرج الأصوات التي زيدت للخليفة الواثق، ثم ما اختاره أبو الفرج لنفسه من أصوات من مصادر أخرى. مع نسبة كل ما ذكره إلى قائله، سواء كان شاعرًا، أو صانع لحن، ويذكر ما يتعلق به من طريقة إيقاعه وغيرها. وتناول ما أورده من هذه الأمور بالشرح والبيان، والتلخيص، وتفسير المشكل، وإيضاح الغريب، والإعراب، وما يتعلق بالشعر من عروض وغيره.

وموضوعه الأول هو الغناء، ألفه ليكون بديلا عن الكتاب المنسوب إلى إسحاق الموصلي، ولذلك صدَّر كتابه بذكر "المائة صوت المختارة للرشيد الذي أمر إبراهيم الموصلي، وإسماعيل بن جامع وفليح بن العوراء باختيارها له من الغناء، ثم رفعت إلى الواثق بالله ، فأمر إسحاق بن إبراهيم أن يختار له منها ما رأى أنه أفضل مما كان اختير متقدما..."، وكان أبو

الفرج يبدأ بذكر الصوت الذي اختاره والشعر المتعلق به، ثم يستطرد إلى ذكر أشعار أخرى قيلت في المعنى نفسه، وتغني بها، ثم يتناول المناسبة التي قيلت فيها هذه الأشعار، وقد تكون المناسبة اجتماعية أو سياسية فيبين ذلك، وهو في أثناء ذلك يتعرض لذكر الإنسان وأخبار القبائل، وقصص وأشعار وملح، فيقف القارئ على ألوان مختلفة من الحياة، وعادات متفرقة في بيئات مختلفة، وطرائق الحياة في البادية والقصور من لهو وتسلية فراغ. ولم يلتزم أبو الفرج في اختيار الأصوات التي ذكرها بالترتيب الزمني للشعراء والمغنين، وإنما رتبها حسب الأصوات المائة التي اختارها المغنون الثلاثة للرشيد، وقد حوى كتاب الأغاني تراجم لزهاء ٣٠٠ شاعر وقرابة ٦٠ من المغنيين والمغنيات.

ومعظم من ترجم لهم كانوا من شعراء الجاهلية والإسلام، ولم يلتزم في أخبارهم ترتيبا تاريخيا، وإنما ينثر ما انتهى إليه من أخبار الشاعر حينما اتفق. واتبع طريقة المحدّثين في إسناد كل خبر إلى رواته. وقد أنفق أبو الفرج في تأليف كتابه ٥٠ سنة، واعتمد في كتابته على مصادر متعددة بعضها شفوية استمدها من أفواه الرواة والأدباء والمجالس الأدبية التي كان يحرص على حضورها، وبعضها أخذها من الكتب التي تعنى بالشعر والغناء، وهو إن أغفل ذكر اسم الكتاب لا يهمل اسم المؤلف لأهمية ذلك في الثقة بالخبر وتقويمه، وعلى الرغم من أهمية الكتاب التي لا يختلف عليها الباحثون في التاريخ والحضارة، فقد وجه للكتاب عدد من المآخذ، وإن كانت لا تقلل من شأن الكتاب، لكنها تبصر القارئ بأن الكتاب ليس مصدرا للتاريخ يُعتمد عليه وحده، وأنه يصور جانبا من حياة بعض الناس لا حياة الأمة كلها، ومن تلك المآخذ أنه ركز على تصوير الحياة اللاهية في المجتمع البغدادي، وأبرز الجوانب الضعيفة في حياة بعض أفراده من خلفاء وقادة وشعراء، واختزل حياتهم في جانب المجون والخلاعة، وأغفل ما كان منها

جادًّا ورزينا، حتى يكاد القارئ يتصور أن بغداد –مدينة العلم وكعبة الثقافة– كانت مركزا للمجَّان والخلعاء لا مركزا للثقافة الجادة وحلقات العلم التي كانت تمتلئ بها مساجدها.

مختصرات الأغاني:

نظرا لضخامة كتاب الأغاني وأهميته في الوقت نفسه فقد عمد كثير من العلماء لاختصاره بمناهج مختلفة ليسهل تداوله ويعم الانتفاع به، ومن أشهر تلك المختصرات:

– "تجريد الأغاني من المثالث والمثاني" لـ"جمال الدين محمد بن سالم" المعروف بابن واصل الحموي المتوفى سنة (٦٩٧هـ = ١٢٩٧م) جرَّد الكتاب من الأسانيد والأصوات، وكل ما يتصل بفن الغناء، واقتصر على الأخبار والتراجم الأدبية، وقد نُشر الكتاب بالقاهرة سنة (١٣٧٤هـ = ١٩٥٥م) بتحقيق طه حسين وإبراهيم الإبياري.

– "مختار الأغاني في الأخبار والتهاني" لـ"ابن منظور المصري" صاحب لسان العرب، والمتوفى سنة (٧١١هـ = ١٣١١م) ورتبه على حروف الهجاء، وأضاف إليه ترجمة واسعة لأبي نواس، التي أغفلها أبو الفرج في كتابه، ونشر الكتاب محققا في القاهرة في ٨ أجزاء سنة (١٣٨٥هـ = ١٩٦٦م).

مآخذ الكتاب:

أولاً: ما يحتويه الكتاب من تشويه مخز للتاريخ الإسلامي لاسيما الخلفاء والأمراء والعلماء وغيرهم، حيث لم يفتأ يصورهم في صورة من لا خلاق لهم ولا دين، لا يردعهم رادع عن اقتراف المحرمات، ولا يمنعهم مانع عن ركوب الشهوات.

ثانيًا: ما يتمتع به هذا الكتاب من شهرة وانتشار، واعتماد الكثير من الباحثين في التاريخ الإسلامي على أخباره، وما يورده من قصص كمصدر أصيل من مصادر التاريخ الإسلامي، مما يجعله مادة دسمة لكثير من

المتصيدين في الماء العكر، الذين يقتنصون الأخطاء، ويتتبعون الهفوات في محاولة منهم لإثبات أن الحضارة الإسلامية في أزهى عصورها كانت مليئة بالخلاعة والمجون بجميع أشكالها وألوانها، وهذا ما يتبادر إلى ذهن القارئ مباشرة عند استعراضه لأخبار هذا الكتاب حتى ليخيل له وللوهلة الأولى أن المجتمعات الإسلامية ومدن الإسلام وحواضره ما هي إلا مواخير للخلاعة، وحوانيت لمعاقرة الخمر، واستماع الغناء والملاهي.

ثالثًا: الطريقة التي يعرض فيها المؤلف أخباره، ويروي بها قصصه، حيث يقرن الخبر بالإسناد، ويسلسله بالرجال حتى يضفي إلى أخباره صبغة المصداقية والقوة، ويستطيع من خلال ذلك تمرير ما يصبو إليه من قدح في أعلام الأمة وساداتها، كما اعتمد في ذلك على طريقة ماكرة، يدس فيها السم في الدسم، وذلك بنقله للروايات المتواترة، والحقائق التاريخية والأحداث والوقائع بشيء من المصداقية، ثم يضيف هو على ذلك أضعافه من الكذب، والتدليس، والتضليل، فيخيل للقارئ أن ما أورده في طيات كتابه هو الحق الذي لا شبهة فيه.

رابعًا: الاهتمام المبالغ فيه بالكتاب من قبل المستشرقين، حيث إنهم اعتبروه مصدرًا مهمًّا لا يستغنى عنه لمعرفة ما كانت عليه المجتمعات الإسلامية في تلك الحقب من التاريخ، وراحوا يروِّجون له ويشيدون بقيمته؛ لأنه يخدم أغراضهم الخبيثة.

خامسا: ومما يدعونا إلى التنبيه على محتويات الكتاب شخصية صاحبه المشبوهة، وتحذير العلماء منه، ووصمهم له بأوصاف تخرجه عن دائرة العدالة وتنفي عنه الثقة في نقل الأخبار، وإليك بعضًا مما قاله فيه أهل العلم: قال ابن الجوزي: (...وكان يتشيع، ومثله لا يوثق بروايته، فإنه يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهون شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه، ومن تأمل كتاب ((الأغاني)) رأى كل قبيح ومنكر) [المنتظم في تاريخ

الملوك والأمم (١٤/ ١٨٥)]، وقال الحسن بْن الحسين النوبختي: (كان أَبُو الفرج الأصبهاني، أكذب الناس، كان يدخل سوق الوراقين وهي عامرة، والدكاكين مملوءة بالكتب، فيشتري شيئا كثيرا من الصحف ويحملها إِلَى بيته ثم تكون رواياته كلها منها)[تاريخ بغداد وذيوله ط العلمية (١١/ ٣٩٨).]، وقال الإمام الذهبي وهو يتحدث عنه: (شيعي، وهذا نادر في أموي، كان إليه المنتهى في معرفة الأخبار وأيام الناس، والشعر، والغناء، والمحاضرات، يأتي بأعاجيب بحدثنا وأخبرنا).[ميزان الاعتدال (٣/ ١٢٣)].

إضافة إلى ذلك إغراق الرجل في الشعوبية الحاقدة، الناقمة على كل ما هو عربي، الشعوبية التي تفيض من سطور الكتاب، وتفوح رائحتها من بين حروفه وكلماته.

سادسًا: مما يؤخذ على كتاب الأغاني أن صاحبه أكثر من نقل الخلاعة والمجون، وركز على هذا الجانب حتى طفح به الكتاب وفاض، مصرحًا بذلك لا معرضًا، مستخدمًا الألفاظ الفاحشة، والعبارات القبيحة، ولولا تنزهينا لأسماع القرَّاء، وألسنتهم لعرضنا جانبًا من هذا الفحش والبذاء، ولعل وَلَعَهُ بهذه الأخبار يعكس جانبًا من سلوكياته الأخلاقية، وما طبع عليه من طباع، فمن لا يتنزه عن قول الخنا، والمفاكهة به لا يتورع عن فعله.

سابعًا: ومن المآخذ التي تؤخذ على هذا الكتاب استخفافه بالعقائد والطعن فيها، ونقلها والسكوت عنها، فتراه ينقل الكفر البواح، والاستهزاء بالصلاة، وما إلى ذلك، ويتضح ذلك من خلال بعض ما سنورده من نقول مقتضبة أبقينا فيها على الشاهد، وحذفنا ما ننزه سمعك ولسانك عنه، ففي أحد الأخبار التي نقلها الأصفهاني يقول بعد نقل السند:(اجتمع يحيى بن زياد ومطيع بن إياس وجميع أصحابهم، فشربوا أياما تباعا فقال لهم يحيى ليلة من الليالي وهم سكارى ويحكم ما صلينا منذ ثلاثة أيام فقوموا بنا حتى نصلي فقالوا: نعم، فقام مطيع فأذن وأقام ثم قالوا من يتقدم فتدافعوا ذلك فقال مطيع

للمغنية تقدمي فصلي بنا فتقدمت تصلي بهم عليها غلالة رقيقة مطيبة...) [الأغاني (١٣/ ٣٥٠)] إلى آخر ما ورد في هذا الخبر، وفي خبر آخر يقول: (حَدَّثَنِي حمزة النوفلي، قال: صلى الدلال المخنث إلى جانبي في المسجد، فضرط ضرطة هائلة سمعها من في المسجد، فرفعنا رؤوسنا وهو ساجد وهو يقول في سجوده رافعًا بذلك صوته: سبح لك أعلاي وأسفلي، فلم يبق في المسجد أحد إلا فتن وقطع صلاته بالضحك)[الأغاني (٤/ ٢٧٣)].

ومن الأمثلة على نقله لتحريف القرآن وسكوته عنه، ما نقله عن الفرزدق إذ سمع رجلًا يقول: ({وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [المائدة: ٣٨] فقال الفرزدق: فاقطعوا أيديهما والله غفور رحيم، فقال: ينبغي أن يكون هذا هكذا، قال: فقيل له: إنما هو: عزيز حكيم، قال: هكذا ينبغي أن يكون)[الأغاني (٢١/ ٣٦٤).]، وإليك هذا الخبر الذي ينقل فيه لعن دين الإسلام إذ يحكي في قصة طويلة أن عمر فرق بين منظور بن زبان وبين امرأة أبيه لما تزوجها، وزعم أنه لم يعلم بالتحريم، ثم تزوجت فـ(رآها منظور يوما وهي تمشي في الطريق، وكانت جميلة رائعة الحسن، فقال: يا مليكة، لعن الله دينًا فرق بيني وبينك، فلم تكلمه وجازت...، وبلغ عمر رضي الله عنه الخبر فطلبه ليعاقبه، فهرب منه)[الأغاني (١٢/ ٢٢٨)].

ومما يؤخذ على الكتاب أيضًا أخطاؤه التاريخية التي أوردها مؤلفه فيه، ومن ذلك على سبيل المثال قوله [الأغاني (١٤/ ١٧٤).]: أن هارون الرشيد (قد أخذ صالح بن عبد القدوس وعلي بن الخليل في الزندقة) بينما من قتله هو المهدي، وحينها لم يكن عمر الرشيد يتعدى الخمس سنوات.

ومن ذلك أيضًا روايته عن الوليد بن عقبة أنه قال: (لما فتح رسول الله مكة جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم فيدعو لهم بالبركة ويمسح على رؤوسهم فجيء بي إليه وأنا مخلق فلم يمسسني وما منعه إلا أن أمي خلقتني بخلوق

فلم يمسسني من أجل الخلوق) [الأغاني (٥/ ١٥٤).] .والغريب أن الوليد ابن عقبة أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقًا إلى بني المصطلق يجمع منهم الزكاة، فكيف يكون يوم فتح مكة صبيًّا؟! قال ابن عبد البر رحمه الله: (الحديث منكر مضطرب لا يصح، ولا يمكن أن يكون من بعث مصدقًا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم صبيًّا يوم الفتح) [الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٤/ ١٥٥٣)].

ثامنًا: يؤخذ على الكتاب كذلك التشويه البالغ، لأعلام الإسلام من خلفاء وعلماء وقادة، فنقل عنهم الأخبار الملفقة، والأقاصيص الكاذبة التي تصورهم على غير ما هم عليه، ولا يخفى على العاقل المنصف ما تخلفه هذه الأخبار في نفس قارئها، من تشويه لأعلام ظنهم لبرهة من الزمن يتربعون على عروش العفاف، ويتحلون بحلية الوقار، فإذا هو يصدم بالازدواجية الأخلاقية لهذه الشخصيات، وللأصفهاني في عرض شخصياتهم دهاء ومكر فهو يعرض لاسم واحد من أفاضل الأمة مشفوعا بما يليق به من صيغ التكريم، حتى إذا استوثق من ثقة القارئ المغفَّل رماه بباقعة تجعله موضع الهزء والسخرية!، وقلما سلم من بوائقه هذه فرد أو جماعة أو حزب ممن لهم حميد الذكر بين العرب والمسلمين منذ العهد الراشدي مرورا بالأموي فالعباسي حتى أيام الأصفهاني.

وممن طعن فيهم الأصفهاني: النعمان بن البشير الأنصاري، والإمام أبو حنيفة، وعطاء بن أبي رباح وغيرهم الكثير، ولم يسلم من أذاه آل البيت النبوي، والذي كان يتشيع لهم، ويظهر حبه وتقديره لهم، بينما تكذبه أقواله وما ينقل عنهم، فقد نالوا منه النصيب الأكبر من الإقذاع والتعدي، إذن هو عدو الجميع، لا صديق له يمتنع عن لسانه، ولا صاحب يتورع عنه، وهاك بعض النقول عنه تبين طعونه في سرات الإسلام وساداتهم: قال: كان أبو حنيفة الفقيه صديقًا لحماد عجرد فنسك أبو حنيفة وطلب الفقه فبلغ فيه ما بلغ

ورفض حمادا وبسط لسانه فيه فجعل حماد يلاطفه حتى يكف عن ذكره وأبو حنيفة يذكره فكتب إليه حماد بأبيات يقول في أولها:

إن كان نسكُكَ لا يتمُّ بغير شَتمي وانتقاصي

قال فأمسك أبو حنيفة رحمه الله بعد ذلك عن ذكره خوفا من لسانه)[الأغاني (١٤/ ٣٢٦)]، وهذا افتراء على الإمام الأعظم إذ لم يعرف عن الإمام أي شيء عن صلته بحماد عجرد وأمثاله، ومن طعونه في آل البيت النبوي ذكره أن الحسين بن علي رضي الله عنه أقر يزيد على شربه للخمر [الأغاني (١٥/ ٢٨١)]، ومن ذلك ذكره أن المغنين يجتمعون عند الحسن بن الحسن[الأغاني (١/ ٢٢٧)]، ومن ذلك تعديه على حرماتهم وحديثه عن نسائهم، فهاهو ينقل عن سكينة بنت الحسين مواعدتها لابن أبي ربيعة الشاعر هي وصويحباتها ومحادثته إلى الفجر[الأغاني (٢/ ٣٦٩)]، كما ينقل عنه أنها تحكم بين المغنين وتفصل بينهم [الأغاني (٢/ ٣٥٩)] إلى ما هنالك من هذه النقول التي يطفح بها هذا الكتاب.

تاسعًا: كما يؤخذ على الكتاب أيضًا تصويره الفترة الزمنية التي تمثل صدر الإسلام بأنها فترة دموية مليئة بالدسائس والمؤمرات، والمكر والخديعة، وهذا ما لا يحتاج إلى دليل ولا برهان، فالكتاب مليء بمثل هذه الأخبار والأقاصيص، ومن رجع إليها وجدها ظاهرة للعيان، غير خفية على من تتبعها.

اقتباسات من الكتاب:

"...بلغني أن جميلة قعدت يوما على كرسي لها وقالت لآذنتها: لا تحجبي عنا أحداً اليوم، واقعدي بالباب، فكل من يمر بالباب فاعرضي عليه مجلسي، ففعلت ذلك حتى غصت الدار بالناس، فقالت جميلة: اصعدوا إلى العلالي، فصعدت جماعةٌ حتى امتلأت السطوح. فجاءتها بعض جواريها

فقالت لها: يا سيدتي، إن تمادي أمرك على ما أرى لم يبق في دارك حائطٌ إلا سقط، فأظهري ما تريدين.

قالت: اجلسي، فلما تعالى النهار واشتد الحر استسقى الناس الماء فدعت لهم بالسويق، فشرب من أراد، فقالت: أقسمت على كل رجل وامرأة دخل منزلي إلا شرب، فلم يبق في سفل الدار ولا علوها أحد إلا شرب، وقام على رؤوسهم الجواري بالمناديل والمراوح الكبار، وأمرت جواريها فقمن على كراسي صغارٍ فيما بين كل عشرة نفرٍ جاريةٌ تروح. ثم قالت لهم: إني قد رأيت في منامي شيئاً أفزعني وأرعبني، ولست أعرف ما سبب ذلك، وقد خفت أن يكون قرب أجلي، وليس ينفعني إلا صالح عملي، وقد رأيت أن أترك الغناء كراهة أني يلحقني منه شيء عند ربي، فقال قوم منهم: وفقك الله وثبت عزمك! وقال آخرون: بل لا حرج عليك في الغناء.

وقال شيخ منهم ذو سن وعلم وفقه وتجربة: قد تكلمت الجماعة، ولك حزبٍ بما لديهم فرحون، ولم أعترض عليهم في قولهم ولا شركتهم في رأيهم، فاستمعوا الآن لقولي وأنصتوا ولا تشغبوا إلى وقت انقضاء كلامي، فمن قبل قولي فالله موفقه، ومن خالفني فلا بأس عليه إذ كنت في طاعة ربي، فسكت القوم جميعا، فتكلم الشيخ فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: يا معشر أهل الحجاز، إنكم متى تخاذلتم فشلتم ووثب عليكم عدوكم وظفر بكم ولا تفلحوا بعدها أبداً، إنكم قد انقلبتم على أعقابكم لأهل العراق وغيرهم ممن لا يزال ينكر عليكم ما هو وارثه عنكم، لا ينكره عالمكم ولا يدفعه عابدكم بشهادة شريفكم ووضيعكم يندب إليه كما يندب جموعكم وشرفكم وعزكم. فأكثر ما يكون عند عابدكم فيه الجلوس عنه لا للتحريم له لكن للزهد في الدنيا، لأن الغناء من أكبر اللذات وأسر النفوس من جميع الشهوات، يحيي القلب ويزيد في العقل ويسر النفس ويفسح في الرأي ويتيسر به العسير وتفتح به الجيوش ويذلل به الجبارون حتى يمتهنوا أنفسهم

عند استماعه، ويبرىء المرضى ومن مات قلبه وعقله وبصره، ويزيد أهل الثروة غنًى وأهل الفقر قناعةٌ ورضا باستماعه فيعزفون عن طلب الأموال، من تمسك به كان عالما ومن فارقه كان جاهلاً، لأنه لا منزلة أرفع ولا شيء أحسن منه، فكيف يستصوب تركه ولا يستعان به على النشاط في عبادة ربنا عز وجل، وكلامٌ كثيرٌ غير هذا ذهب عن المحدث به، فما رد عليه أحد ولا أنكر ذلك منهم بشرٌ، وكلٌّ عاد بالخطأ على نفسه وأقر بالحق له، ثم قال لجميلة: أوعيت ما قلت ووقع من نفسك ما ذكرت؟ قالت: أجل وأنا أستغفر الله، قال لها: فاختمي مجلسنا وفرقي جماعتنا بصوت فقط، فغنت:

أفي رسم دارٍ دمعك المترقرق سفاهاً! وما استنطاق ما ليس ينطق
بحيث التقى جمعٌ وأقصى محسرٍ مغانيه قد كادت عن العهد تخلق
مقامٌ لنا بعد العشاء ومنزلٌ به لم يكدره علينا مـــــــــــعوق
فأحسن شيء كان أول ليلنا وآخره حزنٌ إذا نتفـــــــــــرق

فقال الشيخ: حسنٌ والله! أمثل هذا يترك! فيم نتشاهد الرجال! لا والله ولا كرامة لمن خالف الحق. ثم قام وقام الناس معه، وقال: الحمد لله الذي لم يفرق جماعتنا على اليأس من الغناء ولا جحود فضيلته، وسلامٌ عليك ورحمة الله يا جميلة".

ومنه:

"قال إسحاق بن يحيى بن طلحة: قدم علينا جريرٌ المدينة فحشدنا له، فبينا نحن عنده ذات يوم إذ قام لحاجته، وجاء الأحوص فقال: أين هذا؟ فقلنا: قام آنفاً، ما تريد منه؟ قال: أخزيه، والله إن الفرزدق لأشعر منه وأشرف. فأقبل جريرٌ علينا وقال: من الرجل؟ قلنا: الأحوص بن محمد بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح. قال: هذا الخبيث بن الطيب، ثم أقبل عليه فقال: قد قلت:

يَقَرُّ بعَيْني ما يَقَرُّ بعينها وأحسنُ شيءٍ ما به العينُ قرَّتِ

فإنه يقر بعينها أن يدخل فيها مثل ذراع البكر، أفيقر ذلك بعينك؟ قال: وكان الأحوص يرمى بالأبنة فانصرف وأرسل إليه بتمر وفاكهة. وأقبلنا نسأل جريراً وهو في مؤخر البيت وأشعب عند الباب، فأقبل أشعب يسأله، فقال له جرير: والله إنك لأقبحهم وجهاً ولكني أراك أطولهم حسباً، وقد أبرمتني. فقال: أنا والله أنفعهم لك، فانتبه جريرٌ فقال: كيف؟ قال: إني لأملح شعرك، واندفع يغنيه قوله:

يا أختَ ناجِيةَ السلامُ عليكُم قبلَ الفراق وقبل لَوْم العُذَّل

لو كنتُ أعلم أن آخرَ عهدكم يوم الفراق فعلتُ ما لم أفعلِ

قال: فأدناه جريرٌ منه حتى ألصق ركبته بركبته وجعله قريباً منه، ثم قال: أجل! والله إنك لأنفعهم لي وأحسنهم تزييناً لشعري، أعد، فأعاده عليه وجرير يبكي حتى اخضلت لحيته، ثم وهب لأشعب دراهم كانت معه وكساه حلةً من حلل الملوك. وكان يرسل إليه طول مقامه بالمدينة فيغنيه أشعب ويعطيه جريرٌ شعره فيغني فيه قال: وكان أشعب من أحسن الناس صوتا، قال حماد: والغناء الذي غناه فيه أشعب لابن سريج".

****

ثانياً: كتاب البيان والتبيين للجاحظ

اسمه ونسبه:

أبو عثمان عمرو بن بحر محبوب الكناني الليثي البصري، (١٥٩-٢٥٥ هـ) أديب عربي من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، ولد في البصرة وتوفي فيها، كان ثَمَّةَ نتوءٌ واضحٌ في حدقتيه فلقب بالحدقي ولكنَّ اللقب الذي التصق به أكثر وبه طارت شهرته في الآفاق هو الجاحظ، عمّر الجاحظ نحو تسعين عاما وترك كتبا كثيرة يصعب حصرها، وإن كان البيان والتبيين، كتاب الحيوان، البخلاء أشهر هذه الكتب، كتب في علم الكلام والأدب والسياسية والتاريخ والأخلاق والنبات والحيوان والصناعة والنساء وغيرها.

قال ابن خلدون عند الكلام على علم الأدب: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة كتب هي: أدب الكاتب لابن قتيبة، كتاب الكامل للمبرد، كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها».

مولده ونشأته:

ولد في مدينة البصرة نشأ فقيرا، وكان دميما قبيحا جاحظ العينين، طلب العلم في سن مبكّرة، فقرأ القرآن ومبادئ اللغة على شيوخ بلده، ولكن اليتم والفقر حال دون تفرغه لطلب العلم، فصار يبيع السمك والخبز في النهار، ويكتري دكاكين الورّاقين في الليل فكان يقرأ منها ما يستطيع قراءته، وكانت ولادة الجاحظ في خلافة المهدي ثالث الخلفاء العباسيين ووفاته في خلافة المهتدي بالله سنة ٢٥٥ هجرية، فعاصر بذلك ١٢ خليفة عباسيا، هم: المهدي والهادي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل

والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي بالله، وعاش القرن الذي كانت فيه الثقافة العربية في ذروة ازدهارها.

أخذ علم اللغة العربية وآدابها على أبي عبيدة صاحب عيون الأخبار، والأصمعي الراوية المشهور صاحب الأصمعيات وأبي زيد الأنصاري، ودرس النحو على الأخفش، وعلم الكلام على يد إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام البصري، وكان متصلا –بالإضافة لاتصاله للثقافة العربية– بالثقافات غير العربية كالفارسية واليونانية والهندية، عن طريق قراءة أعمال مترجمة أو مناقشة المترجمين أنفسهم، كحنين بن إسحق وسلمويه، وتوجه إلى بغداد، وفيها تميز وبرز، وتصدّر للتدريس، وتولّى ديوان الرسائل للخليفة المأمون.

وفاته:

ويتحدّث كتّاب السير عن نهايته في عام ٨٦٨ م الموافق لسنة(٢٥٥) هـ وقد نيف على التسعين سنة. وله مقالة في أصول الدين وإليه تنسب الجاحظية، وقد هدّه شلل أقعده وشيخوخة صالحة، عندما كان جالسا في مكتبته يطالع بعض الكتب المحببة إليه، فوقع عليه صف من الكتب اردته ميتا، لقد مات الجاحظ مدفونا بالكتب, مخلفاً وراءه كتبا ومقالات وأفكارا ما زالت خالدةً حتى الان.

كتاب البيان والتبيين:

من أعظم مؤلفات الجاحظ، وهو يلي كتاب الحيوان من حيث الحجم ويربو على سائر كتبه، وإذا كان كتاب الحيوان يعالج موضوعا علميا فإن كتاب البيان والتبيين ينصب على معالجة موضوع أدبي، ولكن الجاحظ في هذين الكتابين، شأنه في جميع كتبه، ينحو منحى فلسفيا، فهو لا يقتصر في كتاب الحيوان على أخبار الحيوانات وخصالها وطباعها، بل يتطرق إلى موضوعات فلسفية كالكمون والتولد، والجواهر والأعراض، والجزء الذي لا

يتجزأ، والمجوسية والدهرية إلخ، وفي كتاب البيان والتبيين لا يكتفي بعرض منتخبات أدبية من خطب ورسائل وأحاديث وأشعار، بل يحاول وضع أسس علم البيان وفلسفة اللغة.

ويعني الجاحظ بالبيان الدلالة على المعنى، وبالتبيين الإيضاح، وقد عرف الكتاب خير تعريف بقوله الوارد في مطلع الجزء الثالث: "هذا أبقاك الله الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين، وما شابه ذلك من غرر الأحاديث، وشاكله من عيون الخطب، ومن الفقر المستحسنة، والنتف المستخرجة، والمقطعات المتخيرة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة والجوابات المنتخبة".

بعض أقوال القدماء فيه:

فيه يقول أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري في كتابه: الصناعتين، عند الكلام على كتب البلاغة: "وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمري كثير الفوائد، جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة واقسام البيان والفصاحة، مبثوثة في تضاعيفه، ومتثرة في اثنائه، فهي ضالة بين الامثلة، لا توجد الا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير"، ويقول ابن رشيق القيرواني (٣٩٠هـ – ٤٦٣هـ) في كتابه: العمدة: "وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ— وهو علامة وقته – الجهد، وصنع كتابا لا يبلغ جودة وفضلا، ثم ما ادعى احاطته بهذا الفن، لكثرته، وان كلام الناس لا يحيط به الا الله عز وجل"، ونلفي في كل جزء من أجزاء الكتاب الثلاثة بحثا في البيان والتبيين، ومجموعات من الأحاديث والخطب والمقطعات والجوابات والأشعار، ولقد

التزم الجاحظ هذا التصميم وقصد إليه قصدا ليجنب القارئ الملل أو السأم بتنويع الموضوعات، وقد عبر عن ذلك بقوله: "وجه التدبير في الكتاب إذا طال أن يداوي مؤلفه نشاط القارئ له، ويسوقه إلى حظه بالاحتيال له، فمن ذلك أن يخرجه من شيء إلى شيء، ومن باب إلى باب، بعد أن لا يخرجه من ذلك الفن، ومن جمهور ذلك العلم"، وبهذا برر الجاحظ طرقه الموضوعات ذاتها في كل جزء من أجزاء الكتاب، فموضوع علم البيان وفلسفة اللغة توزع على الأجزاء الثلاثة: في الجزء الأول تحدث عن مفهوم البيان وأنواعه، وآفات اللسان، والبلاغة والفصاحة، وفي الجزء الثاني تحدث عن الخطابة وطبقات الشعراء، وفي الجزء الثالث تكلم على أصل اللغة وقيمة الشعر، وفي كل جزء من الأجزاء الثلاثة أورد أبو عثمان منتخبات من كلام الأنبياء، خطبا ومقطعات وأحاديث ورسائل وأشعارا، نسبها إلى مختلف طبقات الناس: عقلاء وحمقى، نساك ومتهتكين، أعراب ومتحضرين، رؤساء وسوقة.

ويعد الكتاب من أمهات كتب الأدب العربي، كما ألمح ابن خلدون في مقدمة تاريخه عند كلامه على علم الأدب، بدأه صاحبه بمقدمة: ضَمَّنَهَا حديثًا عن الفصاحة والطلاقة، والعي والحصر، ثم شَرَعَ في تفصيل البيان، وذِكْر أشهر الخطباء، وأهم الخُطَب، والرسائل الأدبية التاريخية، كما عَرَضَ المؤلف لظاهرة الشعوبية السائدة آنذاك من خلال الحديث عن العصا، التي من عادة العرب اتخاذها في مواضع متباينة، والجزء الأخير جعله أخلاطًا: من الشعر، والنوادر، والأحاديث، وتعازي الملوك. وألف الجاحظ كتابه في أواخر أيامه وغايته في الدفاع عن البيان العربي في مختلف مظاهره، وتحدث فيه عن الألفاظ وفصاحتها، والأفكار والأساليب، وتناسب اللفظ والمعنى. كما ملأه بالأخبار والنوادر والطرائف، والشعر وشواهد القرآن الكريم والحديث الشريف والخطب والأمثال وغيرها للدفاع عن ما يذهب إليه، مما جعل من

الكتاب موسوعة أدبية تمثل ثقافة الجاحظ التي أحاطت بمعارف عصره، أما موضوعات الكتاب الكبرى فتدور حول البيان والبلاغة، والخطابة، والشعر، والأسجاع، ونماذج من الوصايا والرسائل، وطائفة من كلام النساك والقصاص وأخبارهم، وغير ذلك. ويتنقل الجاحظ بين هذه القضايا مرسلًا نفسه على سجيتها، غير متقيد بمنهج محكم يلتزمه، بل يعتمد على الاستطراد والانتقال من موضوع الى آخر، ثم العودة الى ما أسلف من قبل، مشيعًا جوًّا من الفكاهة المحببة.

من مقدمة المحقق (طبعة دار الهلال):

كتاب البيان والتبيين من أضخم مؤلفات الجاحظ، وهو يلي كتاب الحيوان من حيث الحجم ويربو على سائر كتبه. وإذا كان كتاب الحيوان يعالج موضوعا علميا فإن كتاب البيان والتبيين ينصب على معالجة موضوع أدبي. ولكن الجاحظ في هذين الكتابين، شأنه في جميع كتبه، ينحو منحى فلسفيا. فهو لا يقتصر في كتاب الحيوان على أخبار الحيوانات وخصالها وطباعها، بل يتطرق إلى موضوعات فلسفية كالكمون والتولد، والجواهر والأعراض، والجزء الذي لا يتجزأ، والمجوسية والدهرية الخ. وفي كتاب البيان والتبيين لا يكتفي بعرض منتخبات أدبية من خطب ورسائل وأحاديث وأشعار، بل يحاول وضع أسس علم البيان وفلسفة اللغة.

ويعني الجاحظ بالبيان الدلالة على المعنى، وبالتبيين الإيضاح. وقد عرف الكتاب خير تعريف بقوله الوارد في مطلع الجزء الثالث: «هذا أبقاك الله الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين، وما شابه ذلك من غرر الأحاديث، وشاكله من عيون الخطب، ومن الفقر المستحسنة، والنتف المستخرجة، والمقطعات المتخيرة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة والجوابات المنتخبة» .

وهكذا نلفي في كل جزء من أجزاء الكتاب الثلاثة بحثا في البيان والتبيين، ومجموعات من الأحاديث والخطب والمقطعات والجوابات والأشعار، ولقد التزم الجاحظ هذا التصميم وقصد إليه قصدا ليجنب القارىء الملل أو السأم بتنويع الموضوعات. وقد عبّر عن ذلك بقوله: «وجه التدبير في الكتاب إذا طال أن يداوي مؤلفه نشاط القارىء له، ويسوقه إلى حظه بالاحتيال له، فمن ذلك أن يخرجه من شيء إلى شيء ومن باب إلى باب، بعد أن لا يخرجه من ذلك الفن، ومن جمهور ذلك العلم بهذا برر الجاحظ طرقه الموضوعات ذاتها في كل جزء من أجزاء الكتاب. فموضوع علم البيان وفلسفة اللغة توزع على الأجزاء الثلاثة: في الجزء الأول تحدث عن مفهوم البيان وأنواعه، وآفات اللسان، والبلاغة والفصاحة. وفي الجزء الثاني تحدث عن الخطابة وطبقات الشعراء.

وفي الجزء الثالث تكلم على أصل اللغة وقيمة الشعر. وفي كل جزء من الأجزاء الثلاثة أورد أبو عثمان منتخبات من كلام الأبيناء، خطبا ومقطعات وأحاديث ورسائل وأشعارا، نسبها إلى مختلف طبقات الناس: عقلاء وحمقى، نساك ومتهتكين، أعراب ومتحضرين، رؤساء وسوقة. وإذا سئل الجاحظ: لم لم تجمع كلامك على البيان وفلسفة اللغة في مكان واحد من الكتاب؟ ولم لم تضم أخبار الزهاد والنساك وأقوالهم في باب واحد ولم وزعت أخبار النوكى وأقوالهم على الأجزاء الثلاثة، ولم عدت إلى الكلام على الخطابة والخطباء مرارا وبعثرت خطبهم هنا وهناك الخ ردد صاحبنا الجواب ذاته واعتل بالعلة ذاتها.

لقد جاء كتاب البيان والتبيين استجابة لاهتمام العرب في ذلك العصر بصناعة الكلام لأن الكلام هو الوسيلة المثلى لنشر المبادىء السياسية والعقائد الدينية في زمن كثرت المذاهب واشتد الصراع بين زعمائها واحتدم الجدل بين أنصارها، فمست الحاجة إلى التمرس بالخطابة والمناظرة

وإلى وضع أصول لها تتعلم أو يرجع إليها. وقد أشار الجاحظ إلى النشاط الذي بدأ يبذل في تعليم أسس الخطابة حيث يقول: «مرّ بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب، وهو يعلم فتيانهم الخطابة، فوقف بشر، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا في النظارة، فقال بشر: اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه». كما أشار إلى حاجة المتكلم الماسة إلى البيان لأنه مضطر للاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل وأنه لا بد له من مقارعة الأبطال ومن الخطب الطوال...

الخاتمة:

وفي النهاية نجد أن كتاب البيان والتبيين، لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. كثير الفوائد، جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، ولا يكتفي الجاحظ بعرض منتخبات أدبية من خطب ورسائل وأحاديث وأشعار، بل يحاول وضع أسس علم البيان وفلسفة اللغة، ويعني الجاحظ بالبيان: الدلالة على المعنى، وبالتبيين: الإيضاح.

اقتباسات من بعض ماورد في الكتاب:

-القلم أحد اللسانين، والقلم أبقى أثراً، واللسان أكثر هذرا.

-إذا كان الحب يعمي عن المساوي فالبغض يعمي عن المحاسن.

-حدِّث الناس ما حرجوك بأبصارهم وأذنوا لك بأسماعهم، فإن رأيت منهم فترة فأمسك.

-كان السلف يخافون من فتنة القول أكثر مما يخافون من فتنة السكوت.

-كانوا يمدحون جهور الصوت، ومدحوا سعة الفم.

-قيل لعبد الملك بن مروان: عجل لك الشيب فقال: وكيف لا يعجل علي، وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين.

-قال الحسن: لسان العاقل وراء قلبه فإذا أراد الكلام تفكر، فإن كان له قال، وإن كان عليه سكت.

-دع الاعتذار، فإنه يخالطه الكذب.

-يهلك الناس في فضول الكلام وفضول المال.

-يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

-إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون.

-السكوت عن قول الحق هو في معنى النطق بالباطل.

-خطب أحدهم، ثم قال أحد السامعين هذا خطيب العرب، لو كان في خطبته شيء من القران.

-طبقات الشعراء : شاعر، شويعر، شعرور.

- قيل لبعض العلماء: أي الأمور أمتع؟ قال: مجالسة الحكماء، ومذاكرة العلماء.

-سئل عمر بن عبد العزيز عن قتلة عثمان، فقال : تلك دماء كف الله يدي عنها، فأنا لا أحب أن أغمس لساني فيها.

ومنه أيضًا:

[في العلم]

قال رجل لأبي هريرة النحويّ: أريد أن أتعلّم العلم وأخاف أن أضيّعه.

فقال: «كفى بترك العلم إضاعة» .

وسمع الأحنف رجلا يقول: «التعلم في الصغر كالنقش في الحجر».

فقال الأحنف: «الكبير أكبر عقلا، ولكنه أشغل قلبا».

وقال أبو الدرداء: ما لي أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون.

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلوا» .

قالوا: ولذلك قال عبد الله بن عباس رحمه الله، حين دلّى زيد بن ثابت في القبر، رحمه الله: «من سرّه أن يرى كيف ذهاب العلم فلينظر، فهكذا ذهابه»

[باب عيوب البيان]

قال أبو عثمان عمرو بن بحر، رحمه الله:

اللهمّ إنّا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلّف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، ونعوذ بك من السّلاطة والهذر، كما نعوذ بك من العيّ والحصر. وقديما ما تعوذوا بالله من شرهما وتضرعوا إلى الله في السلامة منهما.

[أحسن الكلام]

أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة، وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه، وتقوى قائله. فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع، بعيدا من الاستكراه، ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة. ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة، ونفذت من قائلها على هذه الصفة، أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد، ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة.

[خير الكلام الوسط]

وقال بعض الربانيين من الأدباء، وأهل المعرفة من البلغاء ممن يكره التشادق والتعمّق، ويبغض الإغراق في القول، والتكلّف والاجتلاب، ويعرف أكثر ادواء الكلام ودوائه، وما يعتري المتكلم من الفتنة بحسن ما يقول، وما يعرض

للسامع من الافتتان بما يسمع، والذي يورث الاقتدار من التهكم والتسلط، والذي يمكن الحاذق والمطبوع من التمويه للمعاني، والخلابة وحسن المنطق، فقال في بعض مواعظه: «أنذركم حسن الألفاظ، وحلاوة مخارج الكلام، فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا، ومنحه المتكلم دلا متعشقا، صار في قلبك أحلى، ولصدرك أملا.

والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة، وألبست الأوصاف الرفيعة، تحولت في العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها، بقدر ما زينت، وحسب ما زخرفت. فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض، وصارت المعاني في معنى الجواري. والقلب ضعيف، وسلطان الهوى قوي، ومدخل خدع الشيطان خفي» .

فاذكر هذا الباب ولا تنسه، ولا تفرّط فيه، فإن عمر بن الخطاب رحمه الله لم يقل للأحنف بن قيس- بعد أن احتبسه حولا مجرّما، ليستكثر منه، وليبالغ في تصفح حاله والتنقير عن شأنه-: «إن رسول الله صلّى الله عليه وآله قد كان خوّفنا كل منافق عليم، وقد خفت أن تكون منهم» إلا لما كان راعه من حسن منطقه، ومال إليه لما رأى من رفقه وقلة تكلّفه، ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «» إن من البيان لسحرا» .

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل أحسن في طلب حاجة وتأتى لها بكلام وجيز، ومنطق حسن: «هذا والله السحر الاحلال»، وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «لا خلابة»، فالقصد في ذلك أن تجتنب السوقي والوحشي، ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ، وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني، وفي الاقتصاد بلاغ، وفي التوسط مجانبة للوعورة، وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه.

****

ثالثاً: كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجُمحي

كان محمد بن سلام الجمحي من أهم الأدباء في عصره، وقد جاء إلى بغداد في عام ٢٢٢ هجريًا وتبعه كبراء البلاد وأكابرهم، وقد وُلد في مدينة البصرة ويعتبر من أشهر الشعراء في عصره، وألف عدد كبير من الكتب النحوية واللغوية مما جعله أحد رواد الأدب الذين تتلمذوا على على يد خلف الأحمر، كما كان أخيه أيضًا من أهم الرواد وقد تعلموا معًا في بداية حياتهم على يد أبيهم سلام الجمحي، ويعتبر كتاب طبقات فحول الشعراء هو أول الكتب التي قام بتأليفها في عصره، وقد اعتبره الجميع من النقاد المتخصصين الذين يقومون بإيصال أفكارهم بسلاسة على شكل فقرات وجمل قصيرة.

وقد استطاع الكاتب البحث في عدد كبير من القضايا وتحليلها والقيام بالدراسات النقدية والكشف عن الحقائق المتعلقة بالأدب والشعر، وهو كتاب يتحدث عن شعراء العرب ومستوياته الشعرية، وهو من تأليف محمد بن سلام الجمحي (ت٢٣٢هـ) وتحقيق محمود محمد شاكر، ويقع الكتاب في مجلدين وبواقع ألف ومائتين وسبع وسبعين صفحة، ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التي صُنفت لتصنيف طبقات الشعراء وصنف فيه ابن سلام الجمحي الشعراء إلى طبقات، كما ناقش الكتاب عدة قضايا مركزية حول الشعر مثل انتحال الشعر وتصنيف الشعراء، ويتسم الكتاب بطابعه النقدي، وقد ظهر ذلك من خلال في مواضيع الكتاب حث ناقش طبقات فحول الشعراء ومسألة الشعر من منظور عقلي ونقد بعض الطبقات للشعراء ونقد الشعراء.

وقد اشتهر العرب ببلاغتهم في الشعر ومداعبة القارء بالصور البيانية والجمالية في التعبير عما يدور حولهم مناحداث أو في تأليف واختلاق الصور الشعرية في أبياتهم، وفي هذا الشأن قام الكاتب "محمد بن سلام الجحمي" باصدار كتابه "طبقات فحول الشعراء ليناقش عدد من طبقات ملقي الشعر من فطاحل الشعراء في عدد من التقسيمات، قامت تقسيماته الشعرية في هذا الكتاب علي عمل حدود فاصلة لكل فئة أو طبقة من الطبقات العشرة التي قسم إليها الشعراء مطعما إياها بعدد من التصيفات الداخلية الإضافية من حيث الاسم والاخبار وإلي من ينتسب الشاعر علي العصرين الجاهلي، ومن تبعه من شعراء آخرين فيما بعد ظهور الإسلام والفتوحات الاسلامية، وما أثري ذلك اللغة و تلاه تأثيرا علي الشعر والشعراء.

موضوعات كتاب طبقات فحول الشعراء:

من أبرز موضوعات الكتاب ما يأتي: الجزء الأول: تحدث فيه عن عشر طبقات للشعراء وهي كالآتي:

الطبقة الأولى:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: امرؤ القيس بن حجر بن الحارث نابغة بني ذيبان وهو زياد بن معاوية بن صباب زهير بن أبس سلمى وهو ربيعة بن رياح ابن قرط بن الحارث الأعشى و هو ميمون بن قيس بن جندل.

الطبقة الثانية:

وصنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: أوس بن حجر بن عتاب بشر بن أبي خازم الاسدي كعب بن زهير بن أبي سلمى الحطيئة أبو مليكة جروب بن أوس أوس بن نظير.

الطبقة الثالثة:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: أبو ليلى نابغة بن جعدة و هو قيس بن عبدالله أبو ذؤيب الهذلي وهو خويلد بن خالد الشماخ بن ضرار بن سنان بن أمامة لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر.

الطبقة الرابعة:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: طرفة بن العبد بن سفيان عبيد بن الأبرص بن جسم علقمة بن عبدة عدي بن زيد بن حمار.

الطبقة الخامسة:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: خداش بن زهير بن ربيعة الأسود بن يعفر بن عبد أبو يزيد المخبل بن ربيعة تميم بن أبي بن مقبل بن عوف

الطبقة السادسة:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: عمرو بن كلثوم بن مالك الحارث بن حلزة عنترة بن شداد سويد بن أبي كاهل.

الطبقة السابعة:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: سلامة بن جندل بن عبدالرحمن حصين بن الحمام المتلمس وهو جرير المسيب بن علس.

الطبقة الثامنة:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: عمرو بن قميئة بن سعد بن مالك النمر بن تولب بن أقيش أوس بن غلفاء الهجيمي عوف بن عطية بن الخرع.

الطبقة التاسعة:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: ضابئ بن الحارث بن أرطأة سويد بن كراع الحويدرة واسمه قطبة سحيم بن عبد بني الحسحاس.

الطبقة العاشرة:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: أمية بن حرثان بن الأسكر حريث بن محفظ الكميت بن معروف عمرو بن شأس أمية بن حرثان طبقة أصحاب المراثي صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: متمم بن نويرة بن جمرة بن شداد الخنساء بن عمرو بن الحارث كعب بن سعد بن عمرو شعراء القرى العربية صنّف في هذه الطبقة من شعراء المدينة المنورة الخزرج من بني النجار وسلمة بن كعب بن مالك وبلحارث بن الخزرج وأوس بن قيس بن الخطيم وأبو قيس بن الأسلت وحسان بن ثابت وهو أشعرهم، و من شعراء مكة المكرمة عبدالله بن الزبعرى وأبو طالب بن عبدالمطلب والزبير بن عبدالمطلب وأبو سفيان بن الحارث ومسافر بن أبي عمرو و ضرار بن الخطاب.

الجزء الثاني تحدث فيه عن عشر طبقات للشعراء، وهي كالآتي:

الطبقة الأولى:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: جرير بن عطية الفرزدق واسمه همام بن غالب الأخطل واسمه غياث بن غوث عبيد بن حصين الاشهب بن رميلة.

الطبقة الثانية:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: البعيث و هو خداش بن بشر القطامي وهو عمرو بن شييم كثير بن عبدالرحمن الخزاعي ذو الرمة.

الطبقة الثالثة:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: كعب بن جعيل بن قمير عمرو بن أحمر العمرد وسحيم بن وثيل بن أعيفر.

الطبقة الرابعة:

صنّف في هذه الطبقة **من** الشعراء ما يأتي: نهشل بن حرى حميد بن ثور الاشهب بن رميلة عمر بن لجأ التيمي.

الطبقة الخامسة:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: أبو زبيد الطائي العجير بن عبدالله عبدالله بن همام نفيع بن لقيط الأسدي.

الطبقة السادسة:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: عبداله بن قيس بن شريح جميل بن معمر بن خيبري نصيب مولى عبدالعزيز.

الطبقة السابعة:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: المتوكل الليثي يزيد بن ربيعة زياد الأعجم عدي بن الرقاع.

الطبقة الثامنة:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: عقيل بن علفة بشامة بن الغدير شبيب بن البرصاء قراد بن حنش.

الطبقة التاسعة:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: الأغلب العجلي أبو النجم.

الطبقة العاشرة:

صنّف في هذه الطبقة من الشعراء ما يأتي: مزاحم بن الحارث العقيلي يزيد بن الطثرية القحيف بن سليم.

اقتباس من الكتاب:

"وَكَانَ أَبوهُ ثَابت بن الْمُنْذر بن حرَام من سادة قومه وأشرافهم وَالْمُنْذر الْحَاكِم بَين الْأَوْس والخزرج فى يَوْم سميحة وَهُوَ يَوْم من أيامهم مَشْهُور وَكَانُوا حكمُوا فى دِمَائِهِمْ يَوْمئِذٍ مَالك بن العجلان بن سَالم بن عَوْف فتعدى فى مولى لَهُ قتل يَوْمئِذٍ وَقَالَ لَا آخذ فِيهِ إِلَّا دِيَة الصَّرِيح، فَأَبَوا أَن يرْضوا

بِحكمِهِ فحكموا الْمُنْذر بن حرَام فَحكم بِأَن هدر دِمَاء قومه الْخَزْرَج وَاحْتمل دِمَاء الْأَوْس فَذكره حسان فى شعره فى قصيدته الَّتِى قَالَ فِيهَا (منع النّوم بالعشاء الهموم ...)

٢٩٣ – وأسرت مزينة ثَابتا أَبَا حسان فَعرض عَلَيْهِم الْفِدَاء فَقَالُوا لَا نفاديك إِلَّا بتيس وَمُزَيْنَة تسب بالتيوس فَأبى وأبوا، فَلَمَّا طَال مكثه أرسل إِلَى قومه أَن أعطوهم أَخَاهُم وخذوا أَخَاكُم.

٢٩٤ – وحدثنى يزِيد بن عِيَاض بن جعدبه أَن النبى صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: لما قدم الْمَدِينَة تناولته قُرَيْش بالهجاء فَقَالَ لعبد الله بن رَوَاحَة رد عَنى فَذهب فى قديمهم وأولهم فَلم يصنع فى الهجاء شَيْئا فَأمر كَعْب ابْن مَالك فَذكر الْحَرْب كَقَوْلِه: (نصل السيوف إِذا قصرن بخطونا ... قدما ونلحقها إِذا لم تلْحق) فَلم يصنع فى الهجاء شَيْئا، فَدَعَا حسان بن ثَابت فَقَالَ اهجهم وائت أَبَا بكر يُخْبِرك أى بمعائب الْقَوْم، وَكَانَ أَبُو بكر عَلامَة قُرَيْش وَكَانَ جُبَير بن مطعم أَخذ الْعلم عَن أَبى بكر.

٢٩٥ – شُعْبَة عَن عدى بن ثَابت الأنصارى أَنه سمع الْبَرَاء بن عَازِب الأنصارى يَقُول قَالَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم اهجهم أَو هاجهم وَجِبْرِيل مَعَك.

٢٩٦ – قَالَ ابْن جعدبه فى حَدِيثه وَأخرج حسان لِسَانه حَتَّى ضرب بِهِ على صَدره وَقَالَ وَالله يَا رَسُول الله مَا أحب أَن لى بِهِ مقولا فى الْعَرَب، فصب على قُرَيْش مِنْهُ شآبيب شَرّ فَقَالَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم اهجهم كَأَنَّك تنضحهم بِالنَّبلِ...".

****

رابعاً: الكامل في اللغة والأدب للمبرد

مؤلف الكتاب

هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الملقب بالمبرِّد، ولد بالبصرة سنة ٢١٠ هـ، طلب العلم صغيرًا، وتلقى على أعلام البصرة النحو واللغة والتصريف، ثم صار إماما في النحو واللغة، وإليه انتهى علم العربية بعد طبقة الجرمي والمازني، واشتهر بإقراء كتاب سيبويه وهو غلام، قال أبو بكر بن أبي الأزهر: «كان أبو العباس محمد بن يزيدَ من العلم وغَزارة الأدب، وكثرة الحفظ، وحسن الإشارة، وفصاحة اللسان، وبراعة البيان، ومُلُوكِيَّة المجالسة، وكَرَم العِشْرة، وبلاغة المكاتبة، وحَلاوة المخاطبة، وجَوْدة الخط، وصحَّة القريحة، وقُرْب الإفهام، ووضوح الشرْح، وعُذوبة المنطق... على ما ليس عليه أحد ممَّن تقدَّمه أو تأخَّر عنه»، وكان إسماعيل بن إسحاق القاضي يقول: لم يرَ المبرّد مثلَ نفسه ممَّن كان قبلَه، ولا يوفى بعدَه مثلُه.

وظل بالبصرة إلى سنة ٢٤٦هـ، حيث ورد إلى (سر من رأى) بطلب من الخليفة المتوكل، وعندما قتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ رحل إلى بغداد واتصل بالأمير محمد بن عبد الله بن طاهر فأكرمه وأجرى عليه أرزاقًا، [ولم يكن أبو العباس محمد بن يزيد –على رياسته، وتفرُّده بمذهب أصحابه، وإرْبائه عليهم بفطنتهم وصحَّة قريحته– متخلِّفًا في قول الشعر، وكان لا يَنْتَحل ذلك ولا يَعْتَزِي إليه، ولا يرسُم نفسَه به، وله أشعار كثيرة، منها قوله:...

بنفسي أخٌ شددتُ به أَزْرِي فألقيته حرًّا على العُسْر واليسرِ
أغيبُ فلي منه ثناءٌ ومدحةٌ وأحضرُ منه أحسنَ القول والبِشْر

وتوفي ببغداد سنة ٢٨٥ هـ ودفن بمقبرة باب الكوفة، قال عنه ابن جني: «يعد جبلاً في العلم، وإليه أفضت مقالات أصحابنا، وهو الذي نقلها وقررها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها»، وقال الأزهري: «كان أعلم الناس بمذاهب البصريين في النحو ومقاييسه».

أخذ عن كثير من أئمة عصره كأبي عمر الجرمي (ت ٢٢٥هـ)وقد ابتدأ المبرد قراءة (الكتاب) عليه ثم توفي الجرمي قبل إتمام القراءة، وأبي محمد التوزي (ت ٢٣٠هـ)، وأبي عثمان الجاحظ ت ٢٥٥هـ)، وأبي حاتم السجستاني (ت ٢٥٥هـ)، وأبي الفضل الرياشي (ت ٢٥٧هـ)، والقاضي إسماعيل بن إسحاق (ت ٢٨٢) وكانت وفاته هي الباعث لتأليف المبرد كتاب (التعازي والمراثي)، وأبي عثمان المازني (ت٢٤٨هـ) ختم عليه كتاب سيبويه وروى عنه القراءة وروى كتابه في التصريف وقال عنه المبرد: لم يكن بعد سيبويه أعلم من أبي عثمان بالنحو، وأبي إسحاق الزيادي (٢٤٨هـ)، وغيرهم.

وأخذ عنه الكثير من العلماء كأبي إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ)، وأبي الحسن علي بن سليمان الأخفش (ت٣١٥هـ) –وهو راوية كتابه الكامل– ، وأبي بكر ابن السراج (ت ٣١٦هـ)، وأبي محمد ابن درستويه (ت٣٤٧هـ)، وأحمد بن جعفر الدينوري ختن ثعلب (٢٨٩هـ)، وابن أبي الأزهر وهو مستمليه، وأبي بكر بن الخياط (ت٣٢٠هـ)، وأبي بكر بن شقير (ت٣١٧هـ)، وابن كيسان (ت٢٩٩هـ)، والخليفة عبد الله بن المعتز (ت٢٩٦هـ)، وغيرهم.

أهمية الكتاب:

يعد كتاب الكامل أصلاً من أصول علم الأدب وركنًا من أركانه، وقد أقبل العلماء وطلاب الأدب على قراءته وإقرائه، ومنهم من شرحه ومنهم من علق عليه ونبه على أغلاطه، ويعد الكتاب من أواخر ما كتب المبرد، ومن

أهم كتبه عامة لأنه حوى طائفة كبيرة من مختار الشعر والنثر والأخبار، وفيه الكثير من التفسيرات اللغوية، والآراء النحوية.

وذكر العلامة ابن خلدون في مقدمته مفهوم علم الأدب وأصوله ثم قال: (وقد سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين: وهي أدب الكتاب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى ذلك فتبع لها وفروع عنها)، وقال القاضي الفاضل (طالعته سبعين مرة، وكل مرة أزداد منه فوائد).

وقد تحدث عن أهمية الكتاب أيضا أبو الفرج المعافى بن زكريا في كتابه (الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي) يقول: «وعمل أبو العباس محمد بن يزيد النحوي كتابه الذي سماه «الكامل» وضمنه أخبارا وقصصا لا إسناد لكثير منها، وأودعه من اشتقاق اللغة وشرحها وبيان أسرارها وفقهها ما يأتي مثله به، لسعة علمه وقوة فهمه ولطيف فكرته، وصفاء قريحته، ومن جلي النحو والإعراب وغامضها ما يقل وجود من يسد فيه مسده».

ويعد كتاب الكامل مصدرا مهمًّا لدراسة أخبار الخوارج إذ أورد عددًا كبيرًا من أخبارهم واستطرد في إيراد أشعارهم وخطبهم وذكر فرقهم وحروبهم وقوادهم في باب مستقلٍّ أبان فيه عن منهجه في ذكر أخبار الخوارج فقال (وأخبار الخوارج كثيرة طويلة، وليس كتابنا مفردًا لهم، ولكنا نذكر من أمورهم ما فيه معنىً وأدب، أو شعر مستطرف، أو كلام من خطبة معروفة مختارة) وأتبع المبرد هذا الباب بعدة أبواب تحدث فيها عنهم بحديث طويل مفصّل فيه استطراد كبير، وقد يخرج إلى ذكر أمور أخرى ثم يعود إلى حديث الخوارج.. واعتذر المبرد عن الإطالة في أخبارهم بعد أن انتهى من ذكرها فقال (وهذا الباب لم نبتدئه لتتصل فيه أخبار الخوارج، ولكن ربما اتصل شيء بشيء،

والحديث ذو شجون، ويقترح المقترح ما يفسخ به عزم صاحب الكتاب، ويصده عن سنته، ويزيله عن طريقه)...

– وفي الكتاب إشارات بلاغية مهمة فهو يتحدث عن الكناية وأقسامها، والمجاز وأنواعه، والاستعارة وألوانها، والالتفات والتجريد، وأطنب القول في التشبيه، وعقد له باب خاصاً، وبين أن (العرب تشبه على أربعة أضرب، فتشبيه مفرط، وتشبيه مصيب، وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه، وهو أخشن الكلام) وخص الإيجاز، ويسميه الاختصار، ويقيده بالمفهم، والإطناب ويصفه بالمفخم، بباب آخر أورد فيه ألواناً (من ألفاظ العرب البينة، القريبة، المفهمة، الحسنة الوصف، الجميلة الرصف).

– ويتميز الكتاب أيضًا بكثرة القضايا اللغوية درسًا وتناولاً واستشهادًا في مختلف صفحات الكتاب، فهو يشرح كل نص شرحًا يتحرى الدقة والعمق والتفريع.

– وهو يحتوي على عدد كبير من الأمثال العربية وشرحها بلغت خمسة وسبعين مثلاً، مع ذكر أصلها والمناسبة التي تقال فيها.

– وعمد المبرد إلى إيراد كثير من أقوال الحكماء وأخبارهم، حتى إنه جعل فصلاً في ذلك عنوانه: نبذ من أخبار الحكماء.

– كذلك عالج الكتاب كثيرًا من القضايا النحوية، وهذا ظاهر جلي في الكتاب ويورد المبرد – وهو رأس النحاة البصريين في عصره– المسائل النحوية في إثر شرح النصوص وذكر قضاياها اللغوية .

– والميزة اللطيف في الكتاب أنه يتوشح بنكات وطرائف يوردها المؤلف بين الحين والحين، مما يجعل القارئ يستريح من عناء أو تعب، وينشط إذا مل أو سئم، وهو في هذه النكات لا يخرج إلى الفحش وخدش الحياء، بل كل الطرائف التي يوردها من الحديث المنعش المليح.

وهو من أمتع كتب العربية، فهو يثقف النفس، ويهذب الروح، ويصقل العقل، ويوسع الأفق، وينمي في الإنسان ملكة حب المعرفة.

منهج الكتاب:

أبان المبرد عن موضوع كتابه ومنهجه في أول الكتاب بقوله: (هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب، ما بين كلام منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة، ورسالة بليغة. والنية فيه أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب، أو معنى مستغلق، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافيًا، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيًا، وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنيا).

وقد رتب المبرد كتابه على أبواب مختلفة ومتفرقة، بلغت تسعة وخمسين بابا؛ صدره بباب في الكلام عن قوله – صلى الله عليه وسلم – للأنصار:«إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع»، وختمه بباب عنوانه: من متنخل طريف الشعر وذكر آيات من القرآن ربما غلط في مجازها النحويون.

وتقسيم المبرد كتابه إلى أبواب لم يكن على نظام معين أو نسق مرتب –فيما يظهر– ، والظاهر أن هذا الترتيب الذي لم يكن سياقه منظما كان يقصد إليه قصدا في كتب الأدب تجنبا لإملال السامع وراحةً لذهن القارئ. بيد أن هذا التقسيم حوى من الفوائد والآداب ما جعل هذا الكتاب متميزاً في بابته، وركناً من أركان الأدب وأصلاً من أصوله.

شروح الكتاب:

ذكر بروكلمان في كتابه تاريخ الأدب العربي شرحا مجهول المؤلف في مكتبة إسماعيل أفندي في إسطنبول، وطبع كتاب (القرط على الكامل) لأبي الوليد الوقشي (ت ٤٨٩هـ) وابن السيد البطليوسي(ت ٥٢١هـ) في الباكستان بتحقيق ظهور أحمد أظهر سنة ١٩٨٠.

ونبه على أغلاطه الإمام علي بن حمزة اللغوي البصري (ت ٣٧٥هـ) في كتابه (التنبيهات على أغاليط الرواة). نشره الشيخ عبد العزيز الميمني مع كتاب المقصور والممدود للفراء وأصدرته دار المعارف بمصر عام ١٩٦٧، وشرحه الشيخ الدلجموني وطبع في القاهرة ١٣٤٧، وهذبه السباعي بيومي في جزأين وطبع بالقاهرة ١٩٢٣.

واختار الدكتور حسين نصار نصوصا من الكامل جمعها في كتاب سماه (المختار من كتاب الكامل) طبع بالقاهرة ٢٠٠٢.

وشرحه الشيخ سيد بن علي المرصفي شرحا سماه (رغبة الآمل من كتاب الكامل) في ثمانية مجلدات سنة ١٩٢٨، وأبان المرصفي عن منهجه في الشرح بقوله في مقدمة الكتاب: «فأحببنا أن نبين للناس ما فيه، بحسن التنبيه، في شرح لطيف لا يمل مطالعه، ولا يسأم سامعه، وقد أسميته (رغبة الآمل من كتاب الكامل) مهتماً به ببيان ما حاد فيه أبو العباس عن سنن الصواب من خطأ في الرواية، وخطل في الدراية (ولا ينبئك مثل خبير). هذا وقد أردنا إذا ذكر أبو العباس شاهداً من شعر العرب أن نورد قصيدته مع ضبط كلماتها وبيان مبهماتها، رغبة في الفائدة، وصلة العائدة».

اقتباسات لغوية أخذتها من كتاب الكامل للمبرد:

–التوطئة هي التذليل و التمهيد فأراد القائل بقوله: "موطأ" الأكناف" أن ناحيته يتمكن فيها صاحبها غير مؤذى، ولا ناب به موضعه؛ وتأويل الأكناف الجوانب. – وأصل لفظة ثرثار من العين الواسعة من عيون الماء، يقال: عينٌ ثرثارةٌ. وكذلك إذا لم تضعف الثاء فقلت: عينٌ ثرةٌ، فإنما معناها غزيرة واسعة

_الداحض: الساقط والداحض أيضاٌ: الزا لق.

_متفيهق متفيعل، من قولهم: فهق الغدير يفهق إذا امتلأ ماءٌ فلم يكن فيه موضع مزيد

_"نضائد الديباج" واحدتها نضيدة، وهي الوسادة وما ينضد من المتاع

ويقال: نضدت المتاع إذا ضممت بعضه إلى بعض،فهذا أصله، قال الله تبارك وتعالى:" لها طلعٌ نضيد" ق:١٠، وقال :" في سدر مخضود وطلح منضود" الواقعة: ٢٨-٢٩.

_السعدان نبت كثير الحسك تأكله الإبل فتسمن عليه، ويغذوها غذاءً لايوجد في غيره، فمن أمثال العرب:" مرعى ولا كالسعدان " تفضيلاً له. ولا ساق له، إنما هو منفرش على الأرض.

_ هيض العظم إذا جبر ثم أصابه شيء يعنته فآذاه فكسره ثانية، أو لم يكسره، وأكثر ما يستعمل في كسره ثانية، ويقال:عظم مهيض، وجناح مهيض في هذا المعنى: ثم يشتق لغير ذلك .

_ورم أنفه، يقول: امتلأ من ذلك غضباً.

_ويقال للمائل برأسه كبرا: متشاوس، وثاني عطفه، وثاني جيده، إنما هذا كله من الكبرياء. قال الله عز وجل :" ثاني عطفه، ليضل عن سبيل الله" الحج ٩.

_آس بين الناس سو بينهم، وتقديره: اجعل بعضهم أسوة بعضٍ، والتأسي من ذا أن يرى ذو البلاء من به مثل بلائه فيكون قد ساواه فيه، فيسكن ذلك من وجده.

_تلجلج ومن أمثال العرب: الحق أبلج والباطل لجلج،أي يتردد فيه صاحبه فلا يصيب مخرجا.

_يقال في سوء الخلق:رجل غلق، وأصل ذلك من قولهم: غلق الرهن أي لم يوجد به تخلص و أغلقت الباب من هذا.

_ومن كلام العرب رهبوتى خير لك من رحموتى، أي" ترهب خير لك من أن ترحم".-

_" قد جاوز الماء الزبى" فالزبية مصيدة الأسد، ولا تتخذ إلا في قلة أو رابية أو هضبة

_" وبلغ الحزام الطبيين، فإن السباع و الخيل يقال لموضع الأخلاف منها: أطباء يا فتى، وأحدها طبي كما يقال في الظلف والخف: خلفٌ، هذا مكان هذا فإذا بلغ الحزام الطبيين فقد انتهى في المكروه، و مثل هذا من أمثالهم: " التقت حلقتا البطان": ويقولون:" التقت حلقتا البطان و الحقب" ويقال: حقب البعير إذا صار الحزام في الحقب...".

****

خامساً: كتاب سيبويه

تاريخ تأليف هذا الكتاب:

مجهول كلَّ الجهل، ولم تذكر كلُّ كتب التاريخ أن الكتاب ظهر في حياة مؤلِّفه، فالسيرافي والمؤرخون من بعده قد ذكروا أن الكتاب لم يَظهر في حياة سيبويه، ولكنه ظَهَر بعد وفاته، والذي نقله عنه ورواه للجمهور تلميذه الأخفش، قال السيرافي: والطريق إلى كتاب سيبويه، الأخفشُ؛ وذلك أن كتاب سيبويه لا نعلم أحدًا قرأه على سيبويه، ولا قرأه عليه سيبويه، ولكنه لمَّا مات سيبويه قُرئ الكتابُ على أبي الحسن الأخفش، وكان ممَّن قرأه عليه أبو عمرو الجرمي، وأبو عثمان المازني. وقال ياقوت في معجمه: وكان الأخفش يستحسن كتاب سيبويه كلَّ الاستحسان، فتوهَّم الجرمي والمازني أن الأخفش قد همَّ أن يدَّعِيَ الكتاب لنفسه، فتشاورا في منع الأخفش من ادِّعائه، فقالا: نقرؤه عليه، فإذا قرأناه عليه أظهرناه، وأشعنا أنه لسيبويه، فلا يُمكنه أن يدَّعيه، فأرغبا الأخفش وبذلا له شيئًا من المال على أن يَقرآه عليه، فأجاب، وشرعا في القراءة، وأخذا الكتاب عنه، وأظهراه للناس.

وتلك قصة تدلُّ على أن الأخفش هو الراوي الوحيد لكتاب سيبويه، ويُفهم منها أن كثيرًا من الناس كان يعلم بتأليف سيبويه للكتاب، بل أُرجِّح أن بعض أجزاء الكتاب كان معروفًا للجمهور، وكذلك بعض ما استشهد به سيبويه من الشعر، بدليل ما ذكرناه من أن الأصمعي وجَّه هذا الشعر توجيهًا غير توجيه سيبويه، واضطر سيبويه إلى مناظرته كما ذكرنا، وإذًا فالذي كان مجهولًا هو الكتاب كاملًا، أمَّا بعضه فكان معروفًا عند الجمهور، ولو أن أمر الكتاب كان مجهولًا بالكلية، ولم يكن يعلم أحد أن سيبويه قد ألَّف كتابًا

لكان من الميسور الشك في نسبته إلى مؤلِّفه من ناحية، وهو ما لم يروِه مؤرخ، بل الإجماع منعقد على أن هذا الكتاب لسيبويه.

غير أن عدم ظهور الكتاب كاملًا طول حياة المؤلف يجعل من حقنا أن نستنبط منه أن سيبويه ظلَّ إلى آخر أيام حياته يُراجع مؤلَّفه، يزيد فيه وينقص، ويقدِّم ويؤخِّر، غير راضٍ أن يُظهِره للجمهور إلا بعد أن يكون قد رضِيَ هو نفسه عنه، فعاجلته المنية قبل أن يُوفِي على هذه الغاية، ويُؤيِّد هذا الاستنباط أيضًا أن الكتاب خالٍ من مقدمة يضعُها المؤلِّف في رأس كتابه، ليقدِّم بها الكتابَ للجمهور، ويذكر فيها غرضه وخطته، وخالٍ من خاتمة تنبئ بانتهاء المؤلِّف من فكرته، بل إن المؤلِّف لم يضع لكتابه اسمًا يُميِّزه كما هو المألوف، مما يدلُّ على أن سيبويه قد مات من غير أن يضع الكتاب في ثوبه النهائي.

والذي يلوح لي أن سيبويه قد استغرق في تأليف كتابه وقتًا طويلًا، وأنه قد بدأه في وقت مُبكِّر، فكان يُقيِّد ما يسمعه من أساتذته وما يراه فيما أُلِّف قبله من الكتب، ويَجمع المُتفرِّق، ويؤلِّف من المتناثر مجموعًا كاملًا، وربما كان يعرض ما يكتبه على الأخفش الذي كان تلميذه، وفي الوقت نفسه أخذ النحو عمَّن أخذ سيبويه عنهم، وهنا نستبعد على رجل مثل الأخفش في علمه، وفي ثقة أستاذه أن ينسب الكتاب إلى نفسه، ولكنه وَهْمٌ سبق إلى الجرمي والمازني.

ويظهر لي أن الكتاب قد ظهر للجمهور بعد موت سيبويه بقليل، فإن يونس بن حبيب قد راجع الكتاب، وأقرَّ بصدق ما رواه سيبويه عنه، كما سبق أن ذكرنا، ويونس قد مات بعد عامين من وفاة تلميذه، كما أن الكسائي الذي تُوفِّي سنة ثلاث وثمانين ومائة قرأ الكتاب على الأخفش سِرًّا، كما روى الأخفش.

خطَّة المؤلف:

لكتاب سيبويه وحدةٌ وغرض معين؛ لأن موضوعه جمع القواعد النحوية والصرفية، وهنا يَحسُن أن نشير إلى أن كتاب سيبويه لا يقتصر على ذكر قواعد النحو فحسب، بل شمل قواعد الصرف أيضًا، ففيه أبواب لأوزان الكلمة وأنواع الاشتقاق المختلفة، والتثنية، والجمع، والإعلال، والإبدال، والتصغير، والنسب، وغير ذلك من أبواب التصريف.

والكتاب مقسَّم إلى أبواب تبلغ زهاء ستمائة، كل باب منها يعالج ناحية من نواحي القواعد، وليس في الكتاب مقدمةٌ كما ذكرنا، بل أوَّلُه في صميم الموضوع؛ إذ يتحدث عن أقسام الكلمة، فيقول: «هذا باب علم ما الكلم من العربية». والكتاب جزءان: يحتوي الجزء الأول منهما على الكلم وأقسامه، والفاعل، والمفعول، وما يعمل عمل الفعل، وإعمال المصدر، واسم الفاعل، والصفة المُشبَّهة، والحال، والظرف، والجر، والتوابع، والمعرفة والنكرة، والمبتدأ والخبر، والأسماء التي بمنزلة الفعل، والأحرف المشبهة به، والنداء، والترخيم، والنفي بلا، والاستثناء، وباب لكل من أحرف الجر. وفي الجزء الثاني ما ينصرف وما لا ينصرف، والنسب، والتصغير، والمقصور والممدود، والجمع، والوقف، والإعلال، والإبدال، ووزن الكلمات، ولكن ترتيب الكتاب يُخالف النهج الذي نتبعه ويتبعه المؤلفون المتأخِّرون فيما يأتي:

أوَّلًا:

ترتيب أبواب الكتاب يخالف ما عهدناه من الترتيب فيما نتداوله من الكتب التي بين أيدينا، فلا يأتي بالمرفوعات كلها على حدة ثُمَّ المنصوبات والمجرورات مثلًا، بل بعضها ممزوج ببعض، كما رأينا ذلك وأنا أسرد أبواب الكتاب، فينتقل من الفاعل إلى المفعول، ثُمَّ بعد أبواب كثيرة يذكر المبتدأ والخبر، وهكذا.

ثانيًا:

لا يسير في ترتيب أبوابه وفصوله على الطريقة المنطقية الدقيقة، فيقدِّم أبوابًا من حقِّها أن تتأخَّر، ويؤخِّر أبوابًا من حقِّها أن تتقدَّم، ويضع فصولًا في غير موضعها الطبيعي، فهو يتحدَّث عن المسند إليه والمسند، وكان من اللائق أن يستوفي أبواب المسند إليه، من مبتدأ وفاعل وغيرهما، ثُمَّ يعود إلى المسند ليستوفي أنواعه وأحكامه، ولكنه لم يتبع ذلك، وكثيرًا ما تقول –وأنت تقرأ الكتاب– ليت ذلك الباب وُضع هنا، أو ليت ذلك الفصل قد انتقل إلى هناك.

ثالثًا:

يذكر سيبويه الباب العام، ثُمَّ يعقد لكل مسألة من مسائله تقريبًا بابًا خاصًّا يُعالجها، فهو يُعَنوِن مثلًا للتصغير، ويذكر صيغه المختلفة، ثُمَّ يعقد أبوابًا للمسائل الجزئية فيه، فتجد بابًا لتصغير ما يكون على خمسة أحرف، وآخر لتصغير المضاعف، وبابًا لتصغير ما كان على ثلاثة أحرف ولحقته الزيادة للتأنيث، وأبوابًا أخرى لفروع التصغير المختلفة.

رابعًا:

يذكر مسائل في أبواب نضعها نحن تحت عنوانات أخرى، فمثلًا هو يعدُّ في أبواب الفاعل بابًا للفاعل الذي لم يتعدَّه فعله إلى مفعول، وبابًا آخر للفاعل الذي يتعدَّاه فعله إلى مفعول، وبابًا ثالثًا للفعل الذي يتعدَّاه فعله إلى مفعولين، بينما نحن الآن نضع ذلك تحت عنوان الفعل المتعدي واللازم.

خامسًا:

لا يذكر دائمًا مسائل الباب الواحد سلسلة متصلة متتابعة، بل يذكر بعضها في موضع وبعضها الآخر في موضع ثانٍ، بعد أن يفصل بينهما في كثير من الأحيان بأبواب أخرى، وتذكر هذه المسائل لمناسبات تستدعيها.

سادسًا:

إنَّ الاصطلاحات النحوية لم تكن قد استقرَّت بعدُ؛ ومن أجل ذلك نجدُه يضع عناوين طويلة لأبواب، وغالبًا ما تكون هذه العناوين غير مفهومة لنا، فترى نفسك مضطرًّا إلى العودة إلى صلب الكتاب لتفهم المقصود منها، وقلَّما تجد عنوانًا مفهومًا لك في هذا الكتاب، وحسبُك أن تعلم أنه وَضَع لإنَّ وأخواتها هذا العنوانَ: «هذا باب الحروف الخمسة التي تعمل فيما بعدها كعمل الفعل فيما بعده، وهي من الفعل بمنزلة عشرين من الأسماء التي بمنزلة الفعل، ولا تُصرَّف تَصرُّف الأفعال، كما أن عشرين لا تُصرَّف تصرُّف الأسماء التي أُخذت من الفعل وكانت بمنزلته، ولكن يُقال بمنزلة الأسماء التي أُخِذت من الأفعال وشُبِّهت بها في هذا الموضع، فنصبت درهمًا لأنه ليس من نعتها، ولا هي مضافة إليه، ولم ترد أن تحمل الدرهم على ما حُمِل العشرون عليه، ولكنَّه واحد بُيِّن به العدد، فعملت فيه كعمل الضارب في زيد، إذا قلت: هذا ضاربٌ زيدًا؛ لأن زيدًا ليس من صفة الضارب ولا محمولًا على ما حُمل عليه الضارب، وكذلك هذه الحروف منزلتُها من الأفعال»، وبعد ذلك كله يقول: وهي إنَّ ولكنَّ وليت ولعلَّ وكأنَّ، ويضع عنوانًا لباب كان وأخواتها قوله: «وهذا باب الفاعل الذي يتعدَّى اسم الفاعل إلى اسم المفعول، واسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد»، ويضع عنوانًا للمفعول لأجله قوله: «هذا باب ما ينتصب من المصادر لأنه عذر».

ويدلُّنا على أن الاصطلاحات النحوية لم تكن قد استقرَّت أنه لم يضع لأسماء الإشارة أسماء، بل دعاها: الأسماء المُبهَمة، كما كان يدعو التسكين: جزمًا، فيقول: وجزمت لدنه، وَيُسَمِّي المقصور: منقوصًا، وغير ذلك كثير.

سابعًا:

يذكر القاعدة وأمثلتها، ويمزج ذلك بالتعليلات المنطقية، وبيان وجه القياس فيما يذكره من القواعد، وعرض الآراء المختلفة في الموضوع الواحد.

ثامنًا:

يفرض فروضًا يضع لها أحكامًا، فيقول مثلًا (ص٣/٢): «ولو جاء في الكلام شيء نحو أكلل وأيقق فسمَّيت به رجلًا صَرَفته؛ لأنه لو كان أفعل لم يكن الحرف الأول إلا ساكنًا مدغمًا»

تاسعًا:

لم تكن الأبواب قد تميَّز بعضها من بعض التميُّزَ الكافي، ويدلُّنا على ذلك باب التمييز وباب التعجب، ممَّا لم تتحدَّد معالمه التَّحدُّدَ الواضح في كتاب سيبويه.

أسلوب الكتاب:

كتاب سيبويه كتاب موضوع للعلماء، وهو من أجل ذلك موجز، كلُّ كلمة فيه موضوعة لمعنى، فهو يشبه مع ضخامته متنًا من المتون؛ ومن أجل ذلك وضع عليه العلماء كثيرًا من الشروح، وقد يُستغرب أن أقول: إنه مع الإيجاز يلتزم جانب التفصيل والتوضيح لما يتناوله حتى يستوفيه، ولكن لا محلَّ للغرابة إذا ذكرنا أنه مع التفصيل يلتزم جانب الإيجاز أيضًا، والذي ساعده على التفصيل تجزئة الموضوع إلى أبواب كثيرة يستوفي في كل باب منها مسألة، يذكر قاعدتها وأمثلتها ويفرِّعها ويفرض فروضًا يضع لها أحكامًا، ويذكر فيها الآراء المختلفة.

وهذا الإيجاز الذي تحدثت عنه يسبِّب في أحيان كثيرة غموضًا وإبهامًا والتواءً، مما يحتاج إلى إعمال الرويَّة والتأنِّي في فهم غرض المؤلف، ولستُ أرمي إلى أن الكتاب غامض أنه غير مفهوم، بل أريد أن أثبت أن الغموض واقع في بعض الفصول، ولكنه في الأغلب واضح، غير أنك لا تستطيع مع ذلك أن تقرأه إلا وأنت مُتريِّثٌ على مَهل، وأسلوب الكتاب يرمي إلى التفهيم لا التأثير، ومع ذلك لا أستطيع أن أخفي ضعف الإبانة في كثير من صفحات الكتاب.

مصادر الكتاب:

وبعدُ، فمن المستبعد أن يظهر كتاب شامل في النحو والصرف ككتاب سيبويه من غير أن يكون قد سبقته محاولات اقتبس منها، وسار على هُداها، وهم يقولون لذلك: إن سيبويه قد اقتبس ممَّن سبقه، ولا سيَّما عيسى بن عمر الثقفي، الذي ألَّف كتابين في هذه المادة، سمَّاهما: الإكمال والجامع، ويروون أن الخليل قال فيهما: ذهب النحو جميعًا كله غير ما أَحدَث عيسى بن عمر ذاك إكمالٌ، وهذا جامعٌ فَهُما للناس شمسٌ وقمر، غير أن هذين الكتابين لم يَبقيا، وعَفى على آثارهما كتاب سيبويه، ويظهر لي أنه من الحق أن نعد كتاب سيبويه ثمرةً لكلِّ الجهود التي قام العلماء والمؤلفون بها، منذ بدأ أبو الأسود هذا النحو، فجمع سيبويه ما تفرَّق في كتبهم، وما استشهدوا به من شعر، ورتَّبه ونظَّمه، وأضاف إليه ما سمعه بنفسه.

وهكذا يجب أن نفهم ما قاله ثعلب: اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانًا، منهم سيبويه، والأصول والمسائل للخليل؛ فليس معناه أن واحدًا وأربعين إنسانًا اشتركوا مع سيبويه في تأليف كتابه، ولكن معناه أن سيبويه قد انتفع بعلم من سبقه — وقد كانوا كثيرين — وبنتائج أبحاثهم.

أمَّا هذه الرواية التي نقلها ابن خلكان في ترجمة عيسى بن عمر حين قال: وأخذ سيبويه عنه النحو، وله الكتاب الذي سماه: الجامع في النحو، ويُقال: إن سيبويه أخذ هذا الكتاب وبسَّطه وحَشى عليه من كلام الخليل وغيره، ولما كمل بالبحث والتحشية نُسِب إليه، وهو كتاب سيبويه المشهور. قال ابن خلكان: والذي يدل على صحة هذا القول أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر المذكور، ولازم الخليل بن أحمد، سأله الخليل عن مصنفات عيسى، فقال له سيبويه: صنَّف نيفًا وسبعين مصنَّفًا في النحو، وإن بعض أهل اليسار جمعها، وأتت عنده عليها آفات، فذهبت ولم يبقَ منها في الوجود سوى كتابين؛ أحدهما اسمه الإكمال، وهو بأرض فارس عند فلان،

والآخر الجامع، وهو هذا الكتاب الذي أشتغل فيه وأسألك عن غوامضه. فأطرق الخليل ساعة ثُمَّ رفع رأسه وقال: رحم الله عيسى، وأنشد: ذهب النحو ... إلخ.

أمَّا هذه الرواية فمنقوضة لا أساس لها من الصحة فيما أرى، وهي أقرب إلى التأليف منها إلى الحق والصواب، فغريب ألا توجد من مؤلفات عيسى سوى نسخة واحدة عند هذا الثري، وغريب أيضًا أن تأتي الآفة على جميع كتبه غير هذين الكتابين، هذا إلى أنني أستبعد على الخليل بن أحمد، ومنزلته في النحو منزلته ألا يكون قد اطَّلع على أهم ما خلفه عيسى بن عمر، وأستبعد عليه، وهو الرجل الذي يَزِن كلامه بميزان الذهب أن يتحدث عن كتابين لم يرهما هذا الحديث المليء بالإكبار والإعجاب، وأستبعد عليه أيضًا أن يظل جاهلًا أن تلميذه يقرأ عليه كتاب الجامع ليشرحه ويحشوه. هذا وكتاب سيبويه ليس فيه ما يدل على أن أصله متن وشرح، ولكنه كتاب وُضع وضعًا ابتدائيًّا كذلك، وليس معنى هذا أنه لم ينتفع بكتابَيْ عيسى بن عمر، بل قد انتفع بهما وبغيرهما، شأنه في ذلك شأن كلِّ مؤلِّف محترم حتى عصرنا الحاضر، يريد أن يضع كتابًا قيِّمًا، فمن المُحتَّم عليه أن يرجع إلى ما سبقه من الكتب يستفيد بنتائجها وتجاربها، ولا يُعدُّ ذلك عيبًا في المؤلف أو نقصًا في كتابه، بل إنه ليُعدُّ ناقصًا مقصِّرًا إذا لم يرجع إلى الكتب المؤلَّفة قبله.

استفاد سيبويه، ومن حقه أن يستفيد، من الكتب السابقة، ونقل أيضًا عن أساتذته الذين تحدثنا عنهم فيما مضى، وكلهم من البصريين، ولم يأخذ إلا عن الرؤاسي من الكوفيين، ناقلًا عن كتابه الذي سمَّاه: الفيصل — كما ذكر ذلك ياقوت — وأكثر من روى عنه الخليل بن أحمد، وإن سيبويه لَيَقف منه في الكتاب موقف التلميذ من أستاذه، يسأله عن الأحكام والعلل وفروق القياس، ويثبت إجابة الخليل، بل لقد نقل إلينا في فصل من فصول الكتاب

درسًا من دروسه، فقد عقد بابًا عنوانه: هذا باب إرادة اللفظ بالحرف الواحد (ص٦١، ج٢)، قال: قال الخليل يومًا وسأل أصحابه: كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في لك والكاف التي في مالك والباء التي في ضرب؟ فقيل له: نقول: باء، كاف. فقال: إنما جئتم بالاسم ولم تلفظوا بالحرف. وقال: أقول كه وبه، فقلنا: لِمَ ألحقت الهاء؟ فقال — وهنا أوجِّه النظر إلى مثل من أمثلة القياس الذي كان يستخدمه الخليل — قال: رأيتهم قالوا: عه، فألحقوا هاء حتى صيَّروها يُستطاع الكلام بها؛ لأنه لا يُلفظ بحرف، فإن وصلت قلت: وب، فاعلم يا فتى، كما قالوا: ع يا فتى. ويمضي سيبويه بعد ذلك ناقلًا أسئلة الخليل وأجوبته وأجوبة تلاميذه، ونستطيع أن نأخذ من ذلك صورة لسير الدروس في ذلك الحين، فقد كانت تسير على طريقة المناقشة لا الإلقاء.

ونقل سيبويه كثيرًا عن يونس أيضًا، حتى لقد ينقل عنه أبوابًا برمتها، ففي الكتاب فصلان في التصغير نقلهما عنه، وقال: وجميع ما ذكرت لك في هذا الباب، وما أذكر لك في الباب الذي يليه قول يونس. كما كان يروي عن أبي الخطاب الأخفش الكبير، ويقول: حدَّثني من أثق بعربيته ... ويريد: أبا زيد، كما سبق أن ذكرنا، ويحكي أقوال أبي عمرو بن العلاء، ويوازن بينها وبين قول الخليل ويونس، وكان رائده الحق، فلا يتعصب للخليل، بل للصواب، فنسمعه يقول أحيانًا: وقول يونس أقوى. وأحيانًا يروي عن العرب مباشرةً ويقول إنه سمع منهم، وذلك كله يدل على سعة اطِّلاع سيبويه وتضلعه.

شخصية المؤلف:

استفاد سيبويه –ولا ريب– من الكتب المؤلفة قبله، وأخذ عن أساتذته –كما ذكرنا– فهل أفنى كلُّ ذلك شخصيَّةَ المؤلف، فأصبح جمَّاعًا ليس غير؟ إن كتاب سيبويه لتُطِل منه شخصيته واضحة قوية فيما يأتي:

أوَّلًا: أسلوبه، فالمعلومات قد يتلقاها المرء من هنا ومن هنا، ولكن وضع هذه المعلومات في أسلوب خاص وطريقة خاصة من طرق التعبير هو ما يميز شخصًا من آخر، يقول Buffon في حديثه عن الأسلوب: إن الموضوعات والمكشوفات تُسرق، وتنتقل، وتُكتَب أيضًا بأيدٍ أكثر مهارةً، إن هذه الأشياء خارجة عن الرجل، أمَّا الأسلوب فالرجل نفسه، وإذًا فشخصية سيبويه واضحة كل الوضوح في أسلوبه الذي صاغ به معلوماته التي أخذها من جميع المصادر المعروفة في ذلك الحين.

ويقول بعض المؤرخين: إن الكتاب معقود بلفظ الخليل، وهو ما لا أوافق عليه، فالكتاب بين أيدينا معقود بلفظ سيبويه، وما نقله عن الخليل أو غيره نسبه إليه في صراحة، وقد تحدَّثنا عن أسلوب سيبويه فيما مضى.

ثانيًا: تبويب الكتاب وتقسيمه وترتيبه، وذلك من صنع سيبويه، ولا نستطيع أن نعرف إلى أي مدى استفاد من تبويب الكتب السابقة؛ لأنها لم تصل إلينا.

ثالثًا: الاستنباط وحسن التعليل والبرهنة والتفريع، وحظ سيبويه من ذلك حظ غير يسير، فلا تكاد تخلو صفحة من صفحات الكتاب من استنباط يسوقه، أو تعليل يأتي به، أو برهان يقدمه، أو تفريع يذكر أحكامه المختلفة، مما يدل على عبقرية ممتازة وشخصية قوية لا تكتفي بالنقل والتقليد.

شخصية سيبويه واضحة إذًا في كتابه كل الوضوح، فالكتاب كتاب سيبويه، كَتَبه بقلمه، وصاغ أسلوبَه بفكره، واشترك فيما فيه من استنباط وتعليل وبرهنة وتفريع، وهل يعظم الخليل سيبويه إلا إذا كان قد رآه آخذًا طريقته، مُجيدًا للتعليل والقياس والتفريع.

شواهد الكتاب:

للكتاب مصدران من الشواهد، هما: القرآن الكريم، وكلام العرب وأشعارهم وأمثالهم وحِكَمهم، وفي العصر القديم احتاج العلماء إلى شعر

العرب يستنبطون منه قواعدهم، ويثبتون به آراءهم، وكانوا يستشهدون على ذلك بأشعار الطبقتين من الجاهليين والمخضرمين، ثُمَّ اختلفوا في الإسلاميين كجرير والفرزدق، والأكثر على جواز الاستشهاد بأشعارهم، وكان أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي إسحاق والحسن البصري يُلحِّنون الفرزدق والكميت وذا الرمة ومن على شاكلتهم، ويعدُّونهم من المُولَّدين الذين لا يجوز الاستشهاد بكلامهم، وقد كان بين ابن أبي إسحاق وبين الفرزدق خصومة ونزاع، فقد سمع الفرزدق يقول:

وعَضُّ زمانٍ يَا ابْنَ مَرْوانَ لَمْ يَدَعْ منَ المالِ إلَّا مُسْحَتًا أو مُجَلَّفُ

فرأى أن «مُجَلَّفُ» في رفعها لا تناسب مسحتًا في نصبها، فاعترض على الفرزدق، فهجاه الفرزدق بقوله:

فلو كانَ عبدُ اللهِ مَولًى هَجَوتُه ولكنَّ عبدَ اللهِ مَوْلى مَوالِيَا

فاعترض ابن أبي إسحاق على قوله «مولى مواليا» أيضًا، وقال: بل هو مولَى موالٍ، وسمع قول الفرزدق:

مُستقبِلين شمالَ الشامِ تَضْرِبُنا بحاصبٍ كنَديفِ القطنِ منثورِ

على عَمائمنا تلقى وأَرحُلنا على زواحفَ تزجى، مخُّـــها ريرُ

فقال ابن أبي إسحاق: إنما هو ريرُ. وخالفه يونس، فقال: إن ما قاله الفرزدق جائز حسن. فلمَّا ألحُّوا على الفرزدق قال: زواحفَ تُزجِيها مَحاسِير، ولكن الثقات مجمعون على أن الاستشهاد بالشعراء جائز به وبطبقته، وبمن جاء بعده من المُحْدَثين الذين ينتسبون في العرب، ولم يتجاوز الثقات بهم مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، روى ابن قتيبة عن الأصمعي أنه قال: ساقة الشعراء ابن ميادة (سنة ١٤٩) وابن هرمة ورؤبة (سنة ١٤٥) وحكم الخضري وجميعهم من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية.

وقد بذل سيبويه جهده في تخيُّر شواهد كتابه، وأخذ هذه الشواهد عن الجاهلية كزهير والنابغة، والمخضرمين كحسَّان والحُطيئة، وشعراء الأمويين

كجرير والفرزدق والكميت وابن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات وجميل والأخطل، وأخذ عمَّن قال الثقات إن شعرَهم آخرُ شعر يُحتجُّ به، وهم: ابن ميادة وابن هرمة ورؤبة بن العجاج، فكان موقفه من هؤلاء الإسلاميين غير موقف أبي عمرو بن العلاء وصحبه، ولست أدري رأي سيبويه في بيت الفرزدق: «مستقبلين شمال الشام ...» ولعله يوافق رأي أستاذه يونس، من جوازه واستحسانه، ولا رأيه في البيت الأول: وعض زمان ... أمَّا رأيه في البيت الثاني، فقد ذكره في الجزء الثاني من كتابه (ص٥٨) وبيَّن أن الخليل قد خرَّجه على الضرورة الشعرية التي تُحفَظ ولا يُقاس عليها.

الكتاب ودراسة النحو:

أصبح كتاب سيبويه بعد أن ظهر للناس برنامجًا لمن أراد الدراسة العليا في النحو، وأصبح الطالب لا يُعدُّ مستكملًا هذا النوعَ من الدراسة إلا إذا قرأ كتاب سيبويه، وصار اسم الكتاب يُطلَق عليه، ويفتخر الطلبة بأنهم قرءوه، وممن باهى بذلك أبو نواس وغيره من شعراء العصر، وقد ذكرت فيما مضى مغالاة الناس بهذا الكتاب، وحرصهم على دراسته سواء أكانوا من مُحبِّي سيبويه أم من خصومه، ومن هؤلاء الأعلام الذين درسوا كتاب سيبويه في تلك العصور الأولى غير من ذكرناه فيما سبق: الجرمي، والزيادي، والسجستاني، وأبو العباس المبرد وغيرهم، ولم يكن يُحسب العالم عالمًا في النحو إلا إذا درس كتاب سيبويه كله، قال أبو علي الفارسي: جئت لأسمع من ابن السراج سيبويه، وحملت إليه ما حملت، فلما انتصف الكتاب عسر عليَّ إتمامه، فانقطعت عنه لتمكني من مسائله، فقلت في نفسي بعد مدة: إذا عدت إلى فارس، وسئلت عن إتمامه، فإن قلت: نعم. كذبت، وإن قلت: لا. بطلت الرواية.

العناية بالكتاب:

وكان كتاب سيبويه منذ تأليفه موضعًا لمراجعة العلماء، منهم من يشرحه ومنهم من ينظم ترتيب أبوابه، ومن هؤلاء ابن السراج الذي ألَّف كتاب الأصول، وقد جمع فيه أصول علم العربية، وأخذ مسائل سيبويه، ورتَّبها أحسن ترتيب، كما أنه شرح كتاب سيبويه، وممَّن شرح كتاب سيبويه أيضًا سعيد بن المرزبان، والأخفش الصغير أبو سعيد السيرافي، كما قام بشرح شواهده يوسف بن سليمان الشنتمري.

ولم يقف كتاب سيبويه عند حدود المشرق، بل جاز البحر إلى بلاد الأندلس، وقد عقد الأستاذ الرافعي في كتابه تاريخ آداب العرب فصلًا تحدَّث فيه عن كتاب سيبويه في الأندلس، فذكر أن أقدم ما وقف عليه ممن حفظ كتاب سيبويه هناك هو حمدون النحوي، المُتوفَّى بعد المائتين، ثُمَّ ذكر مَن شُهِر بحفظ الكتاب وتدريسه وشرحه والتعليق عليه، مما يدل على ما لاقاه هذا الكتاب في الأندلس من الإجلال وحسن التقدير تقديرًا لا يقل عن تقدير أهل المشرق له إن لم يَزِد، حتى كانوا يتنافسون في حفظه عن ظهر قلب، وقد قام بعضهم باختصاره للطلبة المبتدئين، ومن أشهرهم أبو حيان في القرن الثامن.

ما أخذه العلماء على سيبويه:

قال ثعلب: يقول سيبويه في كتابه في غير نسخة: «حاشا حرف يخفض ما بعده، كما تخفض حتى، وفيها معنى الاستثناء»، وقد ردَّ عليه الزجاج بأن ذلك في كتابه، وهو صحيح ذهب في التذكير إلى الحرف، وفي التأنيث إلى الكلمة، قال ثعلب: والأجود أن يُحمَل الكلام على وجه واحد، فردَّ عليه الزجاج بأن كُلًّا جيد، قال الله تعالى: «وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ وَيعْمَلْ صَالِحًا»، وقرئ: وَتَعْمَلْ صَالِحًا، وقال عز وجل: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ذهب إلى المعنى، ثُمَّ قال: وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ذهب إلى اللفظ، وليس

لقائل أن يقول: لو حُمِل الكلام على وجه واحد في الاثنين كان أجود؛ لأن كُلًّا جيد.

أمَّا الفراء فكان يقول: إن سيبويه لا يدري حدَّ التعجب. ولقد رجعت إلى الكتاب فلم أجد سيبويه قد استوفى حقًّا أبوابَ التعجب وفروعه المختلفة.

وأمَّا المبرد، فيقول الأستاذ الرافعي: إنه أفرد كتابًا في القدح في كتاب سيبويه والغضِّ منه، ولم أطَّلع على هذا الكتاب الذي وضعه المبرد، ولم أعرف النقط التي خالفه فيها، ولكن ياقوتًا في معجمه ذكر أن عُبيْد الله القصري ألَّفَ كتابًا سماه: الانتصار لسيبويه على أبي العباس في كتاب الغلط.

وذكر الأستاذ «جورجي زيدان» أن أبا بكر الزبيدي ألَّف كتابًا سماه: كتاب الاستدراك على كتاب سيبويه، انتقد فيه موادَّ هامَّة، وطُبِع في روما سنة ١٨٩٠م بعناية الأستاذ «جويدي» المستشرق الإيطالي.

موقف الأقدمين منه:

قال الجاحظ: أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك الزيات، ففكَّرت في شيء أُهديه له، فلم أجد شيئًا أشرف من كتاب سيبويه، وقلت له: أردت أن أهديَ لك شيئًا، ففكَّرت فإذا كل شيء عندك، فلم أرَ أشرف من هذا الكتاب، وهذا كتاب اشتريتُه من ميراثِ الفرَّاء. قال: والله ما أهديت إليَّ شيئًا أحبَّ إليَّ منه.

وذكر صاعد بن أحمد الجياني من أهل الأندلس في كتابه قال: لا أعرف كتابًا أُلِّف في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بأجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب؛ أحدها المجسطي لبطليموس في علم هيئة الأفلاك، والثاني كتاب أرسطاطاليس في علم المنطق، والثالث

كتاب سيبويه البصري النحوي، فإن كلَّ واحد من هذه لم يشذَّ عنه من أصول فنِّه شيء إلا ما لا خطر له.

وقال السيرافي: كان كتاب سيبويه لشهرته وفضله عَلَمًا عند النحويين، فكان يُقال بالبصرة: قرأ فلان الكتاب، فيُعلَم أنه كتاب سيبويه، وقرأ نصف الكتاب، ولا يُشكُّ أنه كتاب سيبويه. وكان محمد بن المبرد إذا أراد مريدٌ أن يقرأ عليه كتاب سيبويه يقول له: هل ركبت البحر؟ تعظيمًا له واستصعابًا لما فيه.

وكان المازني يقول: من أراد أن يعمل كتابًا كبيرًا في النحو بعد كتاب سيبويه، فليَسْتَحِ.

وقال الزمخشري في هذا الكتاب:

ألا صَلِّى الإلهُ صلاةَ صَدْقٍ على عَمْرو بن عُثْمان بن قنبر

فإنَّ كِتابَه لم يُغْنِ عنـــــــــــــــه بنو قَلَمٍ ولا أبناءُ مِنْبَر

تلك كانت نظرة الأقدمين إلى كتاب سيبويه نظرة التقدير والتعظيم، ولم يقتصر إجلال الكتاب على المعجبين بسيبويه، بل كان خصومه في تقديره والارتفاع به كالمُحبِّين، حدَّث الأخفش — كما سبق أن روينا — أنه قرأ كتاب سيبويه على الكسائي في جمعة، فوهب له سبعين دينارًا، قال: وكان الكسائي يقول له: «هذا الحرف لم أسمعه، فاكتبه لي، فأفعل»، قيل: فكأن الجاحظ سمع هذا الخبر، فقال مما يُعدِّده من فخر أهل البصرة على أهل الكوفة: وهؤلاء يأتونكم بفلان وفلان، وبسيبويه الذي اعتمدتم على كتبه وجحدتم فضله! وحدَّث أبو الطيب اللغوي عن أبي عمر الزاهد قال: قال ثعلب يومًا في مجلسه: مات الفرَّاء (وهو كوفيٌّ كما نعلم) وتحت رأسه كتاب سيبويه، يقول سيبويه: "وتقول سيفعل ذلك وسوف يفعل ذلك فتلحقها هذين الحرفين لمعنى كما تلحق الألف واللام الأسماء للمعرفة"

المُضَارع قبل دخُول (السَّين) و(سوف) عليه يكون صالحًا للحال والاستقبال، فإذا دخلتا عليه اختصَّ بزمن المستقبل وانقطعت دلالته الحالية بسببهما، ويعبر عن هذا المعنى بـ(التنفيس) حيث يقولون: حرفا التنفيس،يقول سيبويه "سوف فتنفيسٌ فيما لم يكن بعد. ألا تراه يقول: سوفته".، وفسّره ابن هشام بأنه: "حرف توسيع، وذلك أن السَّين نقلت المضارع من الزمن الضيق وهو الحال إلى الزمن الواسع وهو الاستقبال"، فإذا كانت (ال) مؤدية لغرض تعريفي في الأسماء، فالسين وسوف تؤديان غرض التخصيص للأفعال المضارعة.

****

سادساً: كتاب العمدة لابن رشيق

أبو علي الحسن بن رشيق المعروف بالقيرواني أحد الأدباء والبلغاء، ولد بمدينة المسيلة بالمغرب العربي (في دولة الجزائر حاليًا) ونشأ بها وتعلم هناك، ثم ارتحل إلى القيروان سنة ٤٠٦ هـ، ولد في بعض الأقوال سنة ٣٩٠ هـ وأبوه مملوك رومي من موالي الأزد. وكان أبوه يعمل في المحمدية صائغا، فعلمه أبوه صنعته، وهناك تعلم ابن رشيق الأدب، وفيها قال الشعر، وأراد التزود منه وملاقاة أهله، فرحل إلى القيروان واشتهر بها ومدح صاحبها واتصل بخدمته، ولم يزل بها إلى أن فتح العرب القيروان، فانتقل إلى جزيرة صقلية، واقام بمازرة إلى أن توفي سنة ٤٥٦ هـ.

حياته:

أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، أديب وناقد وشاعر. عاش في القرنين الرابع والخامس الهجريين، ولد بمدينة المسيلة المعروفة بالمحمدية، (وتقع حاليا بشرق الجزائر بجهة قسنطينة وهي حاليا عاصمة ولاية المسيلة)، وكان والده رشيق مملوكاً رومیا لرجل من الأزد، يعمل في صياغة الذهب، وقد علَّم ابنه صنعته ولكن الابن كان يميل إلى الأدب مفضِّلاً أياه على صياغة الذهب. فقد بدأ في نظم الشعر قبل أن يبلغ الحلم، ثم غادر مدينته إلى القيروان عام ٤٠٦هـ، وكانت القيروان في ذلك الوقت عاصمة لدولة بني زيري الصنهاجيين، وتعج بالعلماء والأدباء، فدرس ابن رشيق النحو والشعر واللغة والعروض والأدب والنقد والبلاغة على عدد من نوابغ عصره، من أمثال أبي عبد الله محمد بن جعفر القزاز وأبي محمد عبد العزيز بن أبي سهل الخشني الضرير وأبي إسحاق الحصري القيرواني.

مدح ابن رشيق حاكم القيروان المعز بن باديس بقصائد حازت إعجابه وكانت سببا في تقريبه له، ثم اتصل برئيس ديوان الإنشاء بالقيروان، أبي الحسن علي بن أبي الرجال الكاتب ومدحه. ألف له كتاب العمدة في محاسن الشعر ونقده وآدابه. وقد ولاه علي بن أبي الرجال شؤون الكتابة المتصلة بالجيش. وبقي ابن رشيق في القيروان إلى أن زحفت عليها بعض القبائل العربية القادمة من المشرق فغادرها إلى مدينة المهدية، حيث أقام فترة في كنف أميرها تميم بن المعز، ولكنه مالبث أن ترك المهدية إلى جزيرة صقلية، حيث أقام بمدينة مازر إلى أن وافته منيته.

كتاب العمدة:

هو كتاب في مجمله يتناول الشعر ومحاسنه، أسهب بالحديث عن الشعر لِما يرى له مكانة وتأثير على المجتمعات، وموقف الدين الإسلامي عنه، وما للشعراء والخلفاء والفقهاء من شعر، وما للشعر من وسيلة للتكسب منه، وكيف تحتفي القبائل بالشعراء منهم وما لهم من طبقات، وما بقدرته أن يحط ويرفع من شأن الناس، وكل ما هو متصل بالشعر عام أو خاص.

منـهجـه:

تحدث في كتابه عن الشعر وعرفه، وجعل بابه الأول عن الشعر وعن فضل الشعر عن الكلام العادي، وتلاه الباب الثاني بالرد على من يكره الشعر، وهكذا أخذت تفصيلات الكتاب بأبواب حتى بلغت ١٠٧ باب، جميعها عن الشعر ونقده ومحاسنه، يتميز شرحه بالوضوح والسهولة والدقة، فرغم كثرة الأبواب إلا أنها سبيل للوصول الدقيق، والشرح الموجز البين الدقيق، كما لا يغفلنا بوجود فصول للبلاغة، وعرضه لكثير من القضايا البلاغية، وحده بين شعر الطبع والصنعة كانت الحدود الجديدة والفاصلة عما جاء عن سابقيه، مما ورد عن العلماء في الشعر، ووجود عدد ضخم من أبيات الشعر الجزلة للتقريب وكثير من المقطعات التي اشتهرت منه، وذكر

قولًا مهمًّا؛ وهو: (عولت في أكثره على قريحة نفسي ونتيجة خاطري)، وهي أنه لم يتبع أحدًا في كتابه كان نسج نفسه، وذلك في تفصيله ودراسته للشعر وليس بوجوده وقضاياه، فكان ذلك الكتاب (العمدة) نورًا لمن جاء بعده تهديه إلى سبيل الصواب في الشعر.

من أبواب الشعر عنده:

باب الإشارة: والإشارة عن غرائب الشعر وملحه، وبلاغة عجيبة تدل على بعد المرمى، وفرط المقدرة، ولا يأتي بها إلا شاعر مبرَّز، وحاذق ماهر.

باب التتبيع: وهو ما يريده الشاعر في شعر فيتجاوز ذكره ويضمنه ما تبعه.

باب التجنيس: وذكر لها ضروب كثيرة كالمماثلة.

باب الترديد: أن الشاعر بلفظه يردد فيها المعاني ويكررها.

باب احتماء القبائل بشعرها: فالشعراء قديمًا يقع على عاتقهم بأنهم دروع لحماية قبائلهم بشعرهم، كما أن القبيلة تضع مكانة وقدرًا كبيرًا لشعرائها.

باب العتاق من الخيل ومذكوراتها: وأول ما تحدث عنها في خيل الرسول صلى الله عليه وسلم، وجريًا على العادة في التبرك باسمه، فمنها السكب فرسه يوم أحد، ومنها المرتجز، ومنها اللزاز، وفرس يُقال له: الضرب واللجيف والورد.

باب في معرفة الأماكن والبلدان: حد فيها حدود للمناطق والبلدان وأسباب تسميتها.

باب السرقات وما شاكلها: وهو باب كبير جدًّا، تناول فيه عددًا ليس قليلًا من الشعراء وتناول قصائدهم.

باب ذكر الوقائع والأيام: ذكر ما يمكن أن تؤديه الوقائع والأحداث في نفس الشعراء وكتاباتهم الشعرية.

باب فأل الشعر وطيرته: إذ ذكر تفاؤل حسان بن ثابت بتفاؤله مع النبي صلى الله عليه وسلم بفتح مكة.

باب مشاهير الشعراء: أورد فيه أهم الشعراء وأشعرهم، وذكر عددًا ليس بقليل، وتناول فيه أبيات من كل شاعر.

باب المقلين والمغلبين: وذكر عددًا من الشعراء الذين لهم قصائد قليلة، ولكنها معروفة، وأصحابها معروفون دومًا.

باب التكسب: تحدث فيه أن الشعر لم يكن وسيلة للتكسب، إلا بعد الأعشى.

وكذلك أبواب عدة تناولت فنون الشعر وفصوله والإيجاز، والاطراد، والاشتراك، والتضمين والإجازة، والتغاير، والغلو، والإيغال، والتشكيك، ونفي الشيء بإيجابه، والتتميم، والمبالغة، والتفريع، والالتفات، والتفسير، والتقسيم، والمقابلة، والمطابقة، وما خلط فيه التجنيس بالمطابقة، والتصدير، وغير ذلك مما يدخل من الأساليب البلاغية.

أركان الشعر وقواعده عند ابن رشيق:

قال العلماء بأن ابن رشيق وضع أركانًا للشعر؛ وهي أربعة: المدح، والرثاء، والهجاء، والنسيب، هي ما ذكرها في كتابه، كما أنها هي نفسها أغراض للشعر عنده، غير أنه يزيدها عن أربعة فيجعلها ١٢ غرضًا، وكان للوصف تفرد في الأركان والأغراض وشتى جوانب شعره وديوانه.

وأما قواعد الشعر عنده، فيجب أن تأتي من بواعث ومكامن داخلية عند الشاعر، ولا يمكن صياغة ونظم الشعر مالم تأتِ من باعث حي؛ حيث تتكون في رحمها وتخرج لتؤثر بالنفوس، وإن خرجت من دون باعث، فهي لن تؤثر إطلاقًا، وتجلت من أربعة بواعث أيضًا: الرغبة، والرهبة، والطرب، والغضب.

فمع الرغبة، يكون المدح والشكر.
ومع الرهبة، يكون الاعتذار والاستعطاف.
ومع الطرب، يكون الشوق ورقة النسيب.
ومع الغضب، يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع.

القواعد والأسس النقدية عند ابن رشيق:

ارتبطت القواعد والأسس عند ابن رشيق بعضها ببعض، إلا أنني في كتاب العمدة في باب الشعر وبنيته أجد ما يمكن أن أضعه في ثلاثة معايير أو جوانب؛ عندما قال: (الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء، وهي: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية، فهذا هو حد الشعر)؛ جانب يتعلق باللفظ والمعنى؛ أي: الشكلية، وجانب بالأسلوبية؛ أي: الفنية، وأخيرًا جانب للمعيار الإيقاعي.

أولا: الجوانب الشكلية (اللفظ والمعنى):

وهي طريقة التأليف، وانتقاء الكلام، ورصف العبارات، وكيفية ربط اللفظة باللفظة؛ ومن ثم كيفية توافقها مع معناها الدقيق؛ لتشكيل الوحدة بين أجزائها.

فيرى ابن رشيق أن اللفظ والمعنى متلاحمتان متلازمتان، لا يمكن الفصل والتفضيل بينهما، فإذا كان اللفظ جسدًا، فالمعنى هو الروح للفظه؛ وقال: (من حكم النسيب الذي يفتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجًا بما بعده من مدح وذم، متصلًا غير منفصل عنه، فإن القصيدة مثلها مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب، غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه، وتعفى معالم جماله)، ومتى اختل المعنى، اختل اللفظ، كمن هو مريض الروح يصبح مريض البدن.

ركز على فصاحة الكلام وجزالته، وإن الإحساس مع فصاحة الكلام تولد بلاغة القول، ولولا مراعاة ذلك، فلن يتمكن الشاعر من القول.

حدَّ بين المطبوع والمصنوع في الشعر وعرف بينهما؛ فقال: (فالمطبوع هو الأصل الذي وضع تكلف أشعار المولدين، والمصنوع وإن وقع عليه هذا الاسم، فليس تكلفًا تكلف أشعار المولدين، لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعه من غير قصد ولا تعمُّل، لكن بطباع القوم عفوًا، فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره، حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفًا من التعقيب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك، والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل، فتترك لفظة للفظة، أو معنى لمعنى، كما يفعل المحدثون، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض حتى عدُّوا من فضلِ صنعة الحطيئة حسن نسقه الكلامَ).

وهو بذلك أخذ موقف طويلًا يحد ويفصل بين الشعر، فقسم الشعر إلى قسمين: المطبوع، والمصنوع، فيعرف (المطبوع) ما كتب بدايةً وأصلًا، و(المصنوع) ما تم تنقيحه وتعديله، وهو قسمين: شعر (الصنعة) وقعت به الصنعة من غير قصد ولا تكلف؛ كالتشبيه والبديع التي جاءت عفوًا في بعض أشعار المتقدمين، و(التصنع)؛ أي: وجدت فيه الصنعة عن قصد ولكن بلا تكلف مفسد، و(التصنيع) وجدت فيه الصنعة بتكلف شديد، فالمطبوع هو الأصل، واشترط لقبول المصنوع عدم المبالغة باتخاذه صنعه يعدل ويبدل بغلو، فلا بد أن يترك الشاعر لشعره المطبوع وجودًا، وهذا التفصيل والحد جعل لابن رشيق فضلًا ليس بقليل في تاريخ النقد العربي، حتى يومنا هذا.

ركز على وحدة القصيدة: أن تتحدث القصيدة في إطار واحد تتلاحم فيه أبيات القصيدة بين كل شطر وشطر، بحيث لو أبدلنا بين بيت وبيت اختل المعنى، وأن تتجانس الأبيات فيما بينها ويخرج المعنى في القصيدة بكل سلاسة وانسياب إلى المعنى الذي يليه دون صعوبة ومفاجأة.

أشار للعوامل الباطنية من العوامل النفسية التي لها دور هام في تميز الشعر من قائله؛ فالبواعث للعمل الأدبي ودعائمه، تشحذ القريحة وتحفزه؛ فيقول: (ولا بد للشاعر وإن كان فحلًا حاذقًا مبرزًا من فترة تعرض له في بعض الأوقات؛ إما لشغل يسير، أو موت قريحة، أو نبو طبع، في تلك الساعة أو ذلك الحين).

أخذ بالحديث عن السرقات الشعرية في باب طويل؛ ذكر فيها عددًا من الشعراء والقصائد، وكان رأيه بأن السرقات الشعرية ضعيفة، وأن الفكرة طالما كانت من ذهن الشاعر فلا يوجد سرقات.

ثانيًا: الجوانب الأسلوبية (الفنيـة):

وهي طرق التوظيف البلاغي، وكيفية التعبير المضمر في الكلمات، وتوظيف أساليب البيان والبديع والمعاني؛ كالتشبيه والاستعارة، والكناية والمجاز، وكيف يخرج ذلك الكلام إلى مستوى يكون له التأثير المنشود في النفوس.

قد أحسن التفصيل والتحدث عن الجوانب الأسلوبية، فمن يقرأ كتابه يجد ٣٩ بابًا تتناول الأسلوبية بشكل مفصل لا يسعني الإتيان بها جملةً لحجمها على هذا المقال، إلا أنني ألحقت نموذجًا سابقًا عنها في أوله، ولكن ما نقول هنا بأن تفكيره وتفقهه وعلمه وقدرته على الفصل كان وجه إبداع واختراع زاد به على من سبقوه، وسأذكر أبرز المعايير الفنية؛ وهي:

• تحدث عن حكم البسملة في ابتداء الشعر، فيراه عائدًا إلى الشاعر أن أراد أم لا يريد.

• يدعو إلى الإيجاز دون حذف في المعاني، كما يرى الحذف والمحاورة وابتكار المعاني والاستعارة تزيد من حسن الشعر، كما أن الزيادة الصحيحة هي مليحه.

• يشير لإبراز المعنى وحذف الفضول، والأخذ بالشرح والبيان.

• جمع الفنون البلاغية لا تُتمم الحسن في القصيدة، ولا تحقق الجودة، حتى تكون موافقة لنسق النظم من حيث اللفظة المفردة والتركيب، ومن حيث اكتمال المعنى وعمقه.

وظيفة البديع في جميع ألوانه تنحصر في خدمة اللفظ وليس المعنى، وبذلك تتبين الفضيلة، وتحصل المزية.

يزيد من قيمة الالتفات، فهو فن للبديع يزيد الكلام تطرية وجِدة وتنويعًا من خلال الانتقال بين الضمائر.

• التفضيل في الشعر لقوة وجزالة اللفظ، ولعمق المعاني، أو لسعة الخيال واللطف الأخاذ، أو للانفراد بخيال الفكرة.

يجوز للشاعر التنقل بالكلام من الحقيقة للمجاز، لكن دون إفراط فتسقط جودة العمل.

القصيدة الشعرية مولود للشاعر يجب عليه أن يحسن مظهره وما يبطنه وما يخرج عنه.

القيمة الأسلوبية والفنية في النصوص من خلال تطبيقها لعدد من الفنون البلاغية مهم.

ثالثًا: الجوانب الإيقاعيـة:

وهو الذي يبدأ في اختيار الصوت والتناغم حتى يصل بها إلى بحور الشعر، وما يترك من أثر هو الآخر في النفوس من تأثير، وما يقوم به من تمييز القول عن غيره من الكلام.

بحيث يبدأ من أبسط مكون وهو الصوت بحيث يجتهد المبدع برصف كلماته دون تعقيد ومعاظلة صوتية وتنافر صوتي.

كما يجب البعد عن الاستكراه في تأليف الأصوات ما يسقط بقيمة الكلمة ويبغضه السامع له وللقارئ، فهو لذة للسامعين والقارئين، ومحرك لمكامن نزعات النفس للإحساس والتذوق.

أن يتوجد ويستشعر القصيدة في جرسها فلا يشذ بها فيوقع طباعها.

وجود ميزان موسيقي متتالٍ في تنظيم القوافي وفق بحور الشعر الاثني عشر، والمعروفة الآن الستة عشر، فهي معيار مهم في الانسيابية الشعرية تجنب قائلها من الخلل والضعف، وفصلها إلى اثني عشر بحرًا وأدرجها في باب الشطور.

الترتيب للنظم والقوافي وبعد الحواشي والنظر للميزان الشعري، وانتقاء الروي، وربط أول جرس المنظومة الشعرية لآخرها، تجعل القصيدة محتكمة بذاتها لذاتها.

أجاز تسمية القصيدة على حرفها أو حرفيها الأخيرين للروي كأن تسميها حائية أو ميمية.

يرى ابن رشيق أنه لا بأس من الترنيم والتمديد أثناء التلحين والتغني لإكمال الإيقاع، وللفصل بين الشعر والكلام المنثور، فمثلها مثل حروف المد واللين في حال النصب والرفع والخفض، وبفصل ثلاثة أنواع لغناء الشعر: النصب، والسناد، والهزج، فالنصب: غناء الفتيان والركبان، والسناد: الثقيل ذو كثرة النغمات والنبرات، والهزج: الخفيف الذي يطرب ويرقص عليه، ولها تفصيلات مشبعة في باب الإنشاد.

صفات يجب توفرها في الشاعر:

فيقول: (من حكم الشاعر أن يكون حلو الشمائل، حسن الأخلاق، طلق الوجه، بعيد الغور، مأمون الجانب، سهل الناحية، وطيء الأكناف، فإن ذلك مما يحببه إلى الناس، ويزينه في عيونهم، ويقربه من قلوبهم، وليكن مع ذلك شريف النفس، لطيف الحس، عزوف الهمة، نظيف البزة، آنفًا، لتهابه العامة، ويدخل في جملة الخاصة، سمح اليدين).

فقصد حسن الطباع والأخلاق، باسمًا بشوشًا، يأتمنه من يجانبه، ليس عسرًا غليظًا لينًا تلك الصفات تجعل الشاعر جميلًا في أعين الناس، قريبًا من قلوبهم، ويجب أن يكون شريفًا نبيلًا يبغي العزة والسمو، كريمًا سخيًا دومًا.

تحدث عن مواقف عدة أشار إلى وجود البديهة والارتجال في الشاعر، فالبديهة هي سرعة حضور الفكرة والارتجال ما يكون انهمارًا وتدفقًا لا يتوقف في قائله، متى ما تواجدت في الشاعر مع إحساسه وغريزته تبلغ في حاله مبالغ عظمى.

إن كتاب العمدة بين كتب النقد الأدبي تميز بأنه احتوى أكثر مما يتوقعه الباحث عن الشعر، فكل باب فيه غنى وحده، وهو يستحق هذا الحظو الواسع والثناء العريض من العلماء، وإن ما تميز به هو استخرج خير ما عند العلماء والأدباء والنقاد، وأودعه كتابه، فسهل للدارسين والباحثين طريق يسير للمعرفة والعلم بعد فضل الله.

سابعاً: كتاب الشِّعر والشُّعراء لابن قتيبة

التعريف بابن قُتيبَة:

ابن قتيبة هو أبو مُحمّد عبدالله بن مُسلِم بن قُتيبة الدّينوري، وُلِد في بغداد) سنة ٢٠٣ هـ(، عُرِف بِعلمِه وموسوعِيَّته النَّحويّة والثّقافية واللّغويّة.

الكتاب:

كتاب الشِّعر والشُّعراء هذا من كُتُب تراجِم الشُّعراء أيضا، وهو لابن قتيبة، وفي البداية وقبل أن نخوض في الحديث عن هذا الكِتاب لابدَّ أن نتعرَّف على طريقة المؤلِّف في الكِتاب بشكلٍ عام.

ونقول إنّه بحسب مُعطيات العصر وطبيعته وقضاياه يستطيع المؤلِّف أن يؤلِّف، وبناءً على ذلك، فإنّ أيّ إنتاج سوف يكون جزءاً من تلك القضايا، وابن قُتيبة وُجِد في القرن الثالث الهجري، حيث كانت هناك ظواهِر علمية جديدة ظهَرت منذ استقرار الدّولة وبداية الازدهار، وهذا يعني أنَّ هناك مُتغيِّرات قد تحصل على مستوى الإنتاج، ولكنّه وفي الوقت نفسه وبقدر ما كانت هناك مُتغيّرات كانت هناك ثوابت، وهذه الثوابت هي قضيّة شمولية العصر من الناحية الثقافية، إذا لم تكن هناك تخصُّصات بمفهومها الدّقيق وإنْ وُجدت بعض الكُتب المتخصِّصة، وذلك لأنَّ السِّمة الموسوعيّة هي سِمَة العَصر، ولذلك فإنّ على المؤلِّف أن يمتلك مساحة واسعة من العلوم جميعها، فالموسوعيّة جزءٌ أساسي من طبيعة المؤلِّف حتى وإن ألَّف في جانب محدَّد، فالسِّمة الموسوعيّة هي الغالبة، وهنا نتساءل عن السبب في ذلك.

لأنَّ المؤلِّف أو الكاتب إذا لم يتَّسِم بها فسينتاب كتابه الشَّك، لذلك عليه أن يأخذ من جميع العلوم، وحين يريد الكتابة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، عليه أن يتقدَّم بمجموعة من المعارف ضمن دائرة موسوعيّة كبيرة،

وأن يتحدّث بموسوعيّة أكبر في دائرة التّعريف بالشِّعر والشّاعِر، وهو مضطرٌّ إلى الدخول في قضايا لغوية أو نحوية، وفي بيان رأي العُلماء والشُّعراء في الشِّعر، وبالتّالي ترتبط القضيَّة بحالة موسوعية وإنْ كانت ضمن تخصُّص، ولكن في ما بعد وفي العصر الحديث عندما كَتَب مثلاً الزّركلي كتاب «الأعلام» فالمَقصد منه الترجمة بعيدًا عن الموسوعية، ولذلك نجد فيه أنَّه يُترجِم للعَلمِ من حيث وقت وفاته، ومؤلَّفاته، وقد يُشير أحياناً إلى أنّه مطبوع أو غير مطبوع، وبالتّالي فإنَّ في كتابه هذا شيءٌ من التّخصُّص وليس له علاقة بالموسوعية، وذلك لأنّ العصر تجاوز الموسوعية في حركة التأليف والتفتَ إلى التّخصُّص، لأنّ المطلوب تقديم معرفة دقيقة لجوانب مُتعلّقة بهذا العِلم المُتناوَل من قِبَل المؤلِّف، فإذا أردتَ أن تبحَث عن قضيَّة ما تتعلَّق بِعَلَمٍ ما، فلابدَّ من العودة إلى الكُتُب القديمة.

وابن قُتيبَة هو ابن العَصر الموسوعي، لذلك نجد في كتابه مجموعة كبيرة من الأخبار والشِّعر، فهو لا يخرُج عن سِمَة الموضوعية ارتباطاً منه بطريقة العَصر ومُقتضياته، وهذا أمرٌ عام، فالزَّركلي مثلاً لم يُقدِّم في كتابه الأعلام المُقدِّمة في قسمٍ مستقل، والتّرجمة في قسم آخَر، وإنّما هي مقدّمة موجودة بشكلٍ طبيعيّ تشتمل على توضيحٍ لِمَتن الكِتاب وللطّريقة التي تعامَل بها صاحب الكِتاب مع الأعلام، لذا فهي عِبارَة عن مُخطّط للكِتاب يقوم فيه الكاتِب بتوضيح الخطّة الدّراسية، ولكن بسبب اختلاف آليّة التّفكير والفترة الثقافية في ذلك العَصر – عَصر ابن قُتيبَة – كان لابدَّ من وجود مُقدِّمة على شكلٍ مُختلِف، وإلاّ أصبَح النّاقِد قاصِراً يوجَّه إليه اللّوم، ولذلك كان لابدَّ لابن قُتيبَة من وجود هذه المقدِّمة التي تتسّم بالموسوعية الثقافية تماشياً مع العَصر وقضاياه ...وهنا لابد لنا من طرح سؤالين :ماذا طرح ابن قتيبة في مقدَّمته؟ وما الذي استجدَّ عنده؟

القضايا المُثارة في عصر ابن قُتيبة التي عالَجها في كتابه:

انتقل ابن قتيبة من حالة تنظيرية إلى حالة نقديّة مهمة فقد ارتبطت المُقدّمة بقضايا تنظيرية كان من الطبيعي أن يتطرّق إليها، ولذلك كتبَ في قِسمِه الأوّل الشِّعر القديم والشِّعر المُحدث وترجَم لهؤلاء الشُّعراء، فجاءت الترجَمَة في كتابِه مُرتَبِطة بالعَصر الجاهِلي والعصر العبّاسي، وهذا يعني أنَّ ابن قتيبة قد تلمَّس موضوعات الشِّعر الحديث والشِّعر القديم بناءً على جماليّات الشِّعر، فترجَم لهؤلاء الشُّعراء، وهذا يعني أنَّه موافق عليها.

ثمَّ يبدأ بالنّقد لكي يُظهِر جماليات الشِّعر، وبالتّالي فهو يُعامِل الشِّعر بمقتَضى جماليّاته لا بمقتضى عَصرِه وفترَته، فَلِكُلِّ قصيدة خصوصيّتها وجماليّاتها.

بعد مرحلة التّدوين وبعد مرحلة التّثبيت، تبدأ مرحلة التّفتيش والبحث والتدقيق كما رأينا سابقاً، وهنا قضيَّةٌ أُخرى، فمثلاً لِماذا لا نعترف بالشِّعر الحديث أو قصائد المُحدثين؟

لأنّ الأنظار كانت موجَّهة نحو النموذج الأوّل على غِرار الشِّعر الجاهِلي، أي تفضيل الكلام الذي يقوم على الابتداء بِذِكر الأطلال، ومن ثمّ الغَزَل حتى ينتهي أخيراً إلى المديح.

أمّا ابن قُتيبة فقد استنتَج في كتابه جماليّة القصيدة في كُلِّ عصر، فتحدَّث في قِسمِه الأوَّل عن النموذج الثابت وقضيّة الشَّاعِر الجديد، وهي القضيَّة الإشكالية الجديدة في الواقع الجديد، وابن قُتيبة عندما يَضَع مادّة مُرتبطَة بالشَّاعِر الجديد، فهذا لا يعني أنَّه لا يعترف بقصيدة النموذج، بل على العكس تماماً، فقد ناقَش القصائد وارتباطها بالنّموذَج وقدَّم الشِّعر الحديث، وكذلك القديم بناءً على جمالياته، وهذا يعني أنَّنا يمكن أن نعدَّ ابن قُتيبة أفضل ناقِد في عَصرِه.

وهنا لا بد لنا أن نتساءل :إذا كان الشِّعر الجاهِلي هو النّموذج، وإذا كان الشِّعر المُحدث هو أقلُّ من هذا النّموذَج، فما هو الشِّعر الجميل؟ هناك

مَنْ قال إنَّ الشِّعر الجميل هو الشِّعر القائم على التّدريب والتّنقيح والذي أصبَح مُتداوَلاً بينهم، وهذا يعني أنّ القضيّة كانت نقديّة، وابن قُتيبة عكَسَ قضايا عصره، فهو صاحب موقف نقدي مُتطوّر ومُعاصِر لِزمنه، وهذا ما عالجه في قسمِه الأوّل من المُقدّمة، أمّا القسم الثاني فقد قَصَرَه على التّرجَمة، إلاّ أنّه لم يكن يحرص في سرد تراجِم الشّعراء على منهج علمي دقيق، فقد كان يُرتِّب أسماء الشُّعراء حسب حروف المُعجَم، كما أخضع هذا الترتيب ضمن تصوّره الخاص أحياناً لأساسٍ بيئيٍّ أو فنّي.

أقسام الكتاب:

يُقْسَم كتابه إلى قسمين :«المقدمة والترجمة».

أمّا المقدمة فتتضمّن موضوعات وقضايا نقدية عِدَّة أَثارَها ابن قُتيّبة في كِتابِه، أهمّها:

-كثرة الشّعراء العرب في ما مضى من العصور، ولاسيّما المغمورون الذين قلَّ ذِكرهم وكَسَد شِعرهم.

-منهج القصيدة التقليدية، أي النموذج النظري للقصيدة العربية الذي يقوم على الابتداء بِذِكر الدّيار والأطلال وأهلها الظاعنين، ثمّ النسيب والغزَل وذِكر الرحلة وسُرى الليل حتى ينتهي أخيراً إلى الغَرَض الرئيس من قصيدته في المديح أو الرثاء أو.(...)

-الشّاعِر المُتَكلِّف والمطبوع، فالمُتَكلِّف كما يرى ابن قتيبة هو مَنْ قوَّم شِعره بالثِّقاف، ونقَّحه بطول التفتيش وإعادة النّظر، ومنهم زُهير والحُطيئَة، والمطبوع هو مَنْ سمحَ بالشِّعر واقتدَر على القوافي، وأراك في صدر بيته عجزه وفي فاتحته قافيته، وقد أيَّد كلامه بكثير من الأمثلة الشِّعريّة .المُساواة بين القُدماء والمُحدّثين في الترجَمَة لهم والاختيار من أشعارهم، فالله لم يقصُر الشِّعر والبلاغة على زمنٍ دون آخَر، ولا خصَّ به

قومًا دون قوم، وبناءً على ذلك فقد ذَكَر كلَّ مَنْ أتى بِحسَنٍ من قول أو فعل، أي إنَّ اختياره جاء بناءً على جماليّات الشِّعر عند كلِّ واحد.

قضيّة أقسام الشِّعر من حيث اللفظ والمعنى ...وقد قسَّمه إلى أربعة ضروب:

ضربٌ حسُن لفظه وجاد معناه.

ضربٌ حسُن لفظه وقصُر معناه.

ضربٌ جاد معناه، وقصُرت عنه ألفاظه.

ضربٌ تأخَّر معناه ولفظه.

– الدّواعي التي تبعث على قول الشِّعر، ومنها كما يرى ابن قُتيبة : الطمع، والشّوق، والشّراب، والشّرف العالي، والمكان الخضِر الخالي...، كما أنَّه بيَّن الأوقات المناسِبَة للنّظم، ومنها «أوَّل الليل، وصدر النّهار،...».

–ذَكَرَ بعض المقاييس الأُخرى التي يُختار الشِّعرُ على أساسها، ومنها، الإصابة في التّشبيه، وخِفّة الرّوي.

–الحديث في خاتمة مقدّمته عن عيوب الشِّعر، كالإقواء، والسِّناد، والإجازة...، كما تحدّث عن بعض الضّرائِر الشِّعرية.

وأخيرًا...فقد كان منهج ابن قتيبة في الترجمة أن قسّم الشُّعراء حسب العصور «جاهلي، مُخضرم، إسلامي، أموي، عباسي أوّل(، لكنه لم يلتزم بترتيب شُعراء كلِّ عصر بحسب وفياتهم، كما أنّه قد يُقدِّم شاعِراً على عصره أو يؤخِّره عنه، وهذا يعني أنّ ترتيبه الزّمني ليس دقيقاً .كما رتّب أسماء الشُّعراء داخل العصر على حروف المُعجَم، ثمّ رتّبهم في طبقات على أساس البيئة والقيمة الفنّيّة، حيث اقتصرت ترجمته على الشُّعراء المشهورين بغضِّ النظر عن العصر ومسألة القِدَم والحداثَة.

ويقصد بالمشهورين الذين يعرِفهم أهل الأدب، ويحتجُّ بأشعارهم في النّحو، وقد بَلغَ عدد الشُّعراء الذين ترجَم لهم ٢٠٦ شُعراء.

كما اتّسَمَت التّرجمة لديه بالموسوعيّة، ذلك أنّه كان يذكُر الاسم والنّسَب، كما ذَكَر مجموعة من الأخبار والنّصوص النّقديّة المُرتبطَة بِشِعرِ هذا الشَّاعِر.

****

ثامناً: كتاب كليلة ودمنة

أبو مُحمّد عبد الله بن المقفع (١٠٦ – ١٤٢ هـ)(٧٢٤ م . ٧٥٩ م):

أبو مُحَمَّد عبد الله واسمه روزبه بن داذويه قبل إسلامه) وهو مفكّر فارسي وُلِد مجوسياً لكنه اعتنق الإسلام، وعاصر كُلاً من الخلافة الأموية والعباسية.

درس الفارسية وتعلّم العربية في كتب الأدباء واشترك في سوق المربد. نقل من البهلوية إلى العربية. وله في الكتب المنقولة الأدب الصغير والأدب الكبير فيه كلام عن السلطان وعلاقته بالرعية وعلاقة الرعية به والأدب الصغير حول تهذيب النفس وترويضها على الأعمال الصالحة ومن أعماله أيضاً مقدمة كليلة ودمنة.

سيرته:

هو عبد الله بن المقفع، فارسي الأصل، وُلِد في قرية بفارس اسمها جور، مؤرخون أخرون ينسبون مولده للبصرة، كان اسمه روزبه پور دادويه (روزبه بن داذويه)، وكنيته «أبا عمرو»، فلما أسلم تسمى بعبد الله وتكنى بأبي محمد ولقب والده بالمقفع لأنه أُتهِم بِمّدَ يده وسرق من أموال المسلمين والدولة الإسلامية لِذا نكّل بِه الحجاج بن يوسف الثقفي وعاقبه فضربه على أصابع يديه حتى تشنجتا وتقفعتا (أي تورمتا وإعوجت أصابعهما ثم شُلِتا). وقال ابن خلكان في تفسيره: كان الحجاج بن يوسف الثقفي في أيام ولايته العراق وبلاد فارس قد ولى داذويه خراج فارس، فمد يده وأخذ الأموال. فعذبه فتقفعت يده فقيل له المقفع، وقيل أنه سمي بالمقفع لأنه يعمل في القفاع ويبيعها، ولكن الرأي الأول هو الشائع والمعروف وعلى أساسه عرف روزبه بابن المقفع.

ونشأ ابن المقفع على المجوسية على مذهب المانوية وكان له نشاط في نشر تعاليمها وترجمتها إلى العربية، ومنها كتاب في سيرة مزدك أحد دعاة الثنوية ومن زعمائها المجددين لمبادئها. حتى أسلم على يد عيسى بن علي، فتغير اسمه لعبد الله وتكنى بأبي محمد، ولم تطل فترة إسلامه إذ قتل على يد سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بإيعاز من المنصور متهماً بالزندقة، حيث كانت مبررات قتله على أنه زنديق من الفئة التي تتظاهر بالإسلام مراءاة وخداعاً. ولكن ليس في آثار بن المقفع مايدل على زندقته، ولم يكن هنالك دليل مادي يوجه اتهامات إليه لإثبات زندقته وتبرير قتله، فالزندقة ليست السبب الحقيقي لمقتله وإنما كانت للتغطيه. بالرغم من ذلك فإن احتمالية كونه زنديقاً بعد إسلامه أمر محتمل، فيشير بعض المؤرخين بأن اسلامه ما كان إلا ليحافظ على كرامته وطمعاً في الشهرة والجاه وتقرباً إلى مواليه العباسيين.

صفاته:

عُرِف عبد الله بن المقفع بذكائه وكرمه وأخلاقه الحميدة، وكان له سعة وعمق في العلم والمعرفة ماجعله من أحد كبار مثقفي عصره، حيث تتكون ثقافته من مزيج من ثلاثة جوانب: العربية، الفارسية واليونانية، وكان ملماً بلسان العرب فصاحةً وبياناً، وكاتباً ذو أسلوب، وذلك لنشأته في ولاء آل الأهتم، ووصف بمنزلة الخليل بن أحمد بين العرب في الذكاء والعلم، واشتهر بالكرم والإيثار، والحفاظ على الصديق والوفاء للصحب، والتشدد في الخلق وصيانة النفس.

ونستطيع أن نعرف عنه صدقه من خلال كتاباته وحبه للأصدقاء حتى قال:«ابذل لصديقك دمك ومالك» وذات مرة سُئل ابن المقفّع عن الأدب والأخلاق فقيل له: «من أدّبك»؟ فقال: «إذا رأيت من غيري حسنا آتيه، وإن

رأيت قبيحا أبَيْته»، وقد اتهمه حساده بفساد دينه، وربما كان الاتهام واحد من أسباب مقتله، ولا نجد في شيء من كتاباته ما يؤكد صدق هذا الاتهام.

جمع بين الثقافة العربية والفارسية واليونانية والهندية، فنال من كل هذه الثقافات نصيبًا وافرًا من الفصاحة والبلاغة والأدب، ولا يخفى هذا الأثر الطيِّب إذا تصفّحتَ مؤلفًا من مؤلفاته، فتنهال عليك الحكمة من بين الأسطر، وتنعم بالأسلوب السلس، والذوق الرفيع.

كان حافظا للجميل فمن أهم أقواله: «إذا أسديت جميلاً إلى إنسان فحذار أن تذكره وإذا أسدى إنسان إليك جميلاً فحذار إن تنساه» والعديد والعديد من الصفات الرائعة.

مقتله:

اشتهر عبد الله بن المقفع بِأنه على خِلافٍ شديدٍ مع سُفيان بن مُعاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وهو والي البصرة أثناء فترة حُكم الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، وكان ابن المُقفع يعبث معه ويضحك عليه ويستخف به كثيراً وقيل أن أنف سُفيان كبيراً فكان يقول له عبد الله بن المقفع إذا دخل عليه: السلام عليكُما، يعني سفيان وأنفه معه؛ وقال له في أحد الأيام وهو يسخر منه أمام الناس: «ما تقول يا سُفيان في شخص مات وخلف زوجاً وزوجةً ??».جعل الناس يكتبون ويُدوِّنون القصص والحكايات على ألسنة البهائم منذ زمن قديم، ويعدُّ المؤلِّف اليوناني إيسوف (٥٨٤–٦٢٠ق،م) أول مَن أبدعت قريحته في كتابة القصص والحكايات، و (Aesop,s Fables)تعتبر نموذجًا عاليًا في القصص الأدبي، استمرت هذه السلسلة إلى العهد الأخير، وفي الهند أُلِّفت كتب في القصص والحكايات، باسم "بنج تنتر"، أو "فصول خمسة(Five Principles) "، برز هذا الكتاب ثلاثة قرون قبل المسيح، لَمَّا قدَّم وشنوشرما هذا النموذجَ من الأدب، لقي رواجًا وقَبولًا تامَّينِ بين الأوساط العلمية، ونال مكانةً مرموقة لم

تَتَلْها الكتب الأخرى، واحتلَّ درجة رفيعة بين الكتب التي أُلِّفت على ألسنة البهائم، فتُرجم هذا الكتاب إلى ما يربو على خمسين لسانًا، واشتهرت تراجمُه في اللغات الأوربية باسم (The of Bidpai) أو(Pilpay,s Fables) ، ترجمَه إلى الفرنسية مُؤلِّف كتاب "الإسلام وحضارته" – المستشرق المشهور "أندريه ميكل" – فُمنِح له على ذلك الجائزة، فترجم إلى الفارسية القديمة؛ نظرًا إلى أهمية الكتاب وما يحتويه من قصص ذات طابع أخلاقي وسياسي واجتماعي، فنقله إلى البهلوية الطبيب الحاذق "برزويه"، ثم قام بترجمته إلى الفارسية أبو المعالي نصر الله، وحسين واعظ الكاشفي، وغيرهما، ثم ترجم إلى السنسكريتية من جديدٍ من الترجمة الفارسية.

الكتاب:

ترجَمه إلى العربية من البهلوية الأديب الأريب الفارسي في العهد العباسي عبدالله بن المقفع (١٠٦ – ١٤٢هـ)، فلما جاءت هذه الترجمة على حيز الوجود، نال الأدب العربي نموذجًا عاليًا وفريدًا في اللغة العربية النثرية، لا يستقين أحد أن هذا الكتاب تُرجم إلى العربية، بل يبدو كأنه أبدعَتْه قريحة ابن المقفع، وأنتجته مواهبه العلمية، وكفاءاته العربية، ولكن هذه حقيقة ساطعة أن هذا الكتاب قد سبق له مثيل في اللغة السنسكريتية الهندية، وإن كانت الترجمة العربية قد أُضيفت إليها أشياء، ولكن النسخة العربية قد ذاعَت واشتهرت، كأنها هي الأصل، فترجم "كليلة ودمنة" إلى اللغات الأخرى من النص العربي؛ مثلًا إلى السريانية، والإنجليزية، والفارسية الثانية، والفارسية الهندية، والتركية، واليونانية، والإيطالية، والعبرية، واللاتينية الوسطى، واللاتينية القديمة، والإسبانية.

ولقد أحدث كتاب (كليلة ودمنة) لابن المقفع، ازدهارًا في فن القصة المروية على ألسن الحيوان، الخرافة في الأدب العربي، لا في عصر ابن المقفع فحسب، بل فيما تلاه من عصور، فمنذ أن عرَفتِ العربية هذا الكتاب

اتَّجهت أنظار أدبائها شعراء وكتَّابًا إلى هذا النوع من القصص؛ منهم مَن نَظَم كتاب (كليلة ودمنة)، ومنهم مَن شرحه، ففي القرن الثاني الهجري نظمه أبان بن عبدالحميد بن لاحق البرامكي في نحو أربعة عشر ألف بيت، ونظمه كذلك علي بن داود، وبشر بن المعتمر، وأبو المكارم أسعد بن خاطر، وقد ضاعت هذه المنظومات، ولم يصلنا منها إلا نحو سبعين بيتًا من نظم أبان بن عبدالحميد، نقلها الصولي في كتابه (الأوراق).

فمنذ ذلك الوقت عُدَّ كتاب (كليلة ودمنة) الذي ترجمه عبدالله بن المقفع في النصف الأول من القرن الثاني الهجري – من أوائل مَن نقل إلى اللغة العربية في تاريخ الحضارة الإسلامية، والواقع أن هذا الكتاب النفيس قد احتلَّ منذ ذلك الوقت مكانة كبيرة لدى المسلمين، واستمرت هذه المكانة على مدى العصور حتى يومنا هذا، فما زالت تتوالى طبعات الكتاب الشعبية، وتتم قراءته في المدارس على نطاق واسع، كما أنه تحوَّل في الآونة الأخير إلى مادة تلفزيونية نشرتها القناة العربية "الجزيرة" في برنامجها الخاص "الجزيرة للأطفال"، في الصورة الهزلية في الحلقات المتعددة، التي تجتذب الصغار والكبار معًا.

وأخيرًا ترجمه إلى الأردية – نظرًا إلى أهمية الكتاب – المفتي رفيع الدين حنيف القاسمي الحيدرآبادي، المقيم حاليًّا في شاهين نغر، حيدرآباد، بترجمة سهلة سلسلة، قد جاء طبع هذا الكتاب بدعم مالي جزئي من قِبَل الأكاديمي الأردوي لولاية آندهرا براديش، كما نشر ترجمتها في الصحيفة اليومية "منصف"، الصادرة من مدينة حيدرآباد، في ملحقتها باسم "ميناره نور"، في حلقات متعددة من شهر يونيو إلى شهر نوفمبر سنة ٢٠١١م.

وما نال هذا الكتاب الشهرةَ والصيت والذيوع التام إلا بميزاتِه وخصائصه التي تميزه عن الكتب الأخرى مثل ذلك الكتاب، فيحتلُّ هذا

الكتاب مكانة سامية في اللغة العربية قلما تجد الكتب الأخرى مثل هذه الرفعة والصيت.

الخصائص والميزات:

أولا: إن هذا الكتاب يعتمد أولًا على الأسلوب القصصي، تسلم فيه القصة إلى قصة أخرى، وربما إلى ثالثة ورابعة، وكل قصة تتبعها قصة، هكذا تأتي شخصيات مختلفة في معرض قصة.

نقدم مثالًا لذلك: فإن مَن حقر عدوه لضعفه، أصابه ما أصاب وكيل البحر من الطيطوى، قال شتربة: وكيف كان ذلك؟ قال دمنة: زعموا أن طائرًا من طيور البحر يقال له الطيطوى، كان وطنه على ساحل البحر، ومعه زوجةٌ له، فلما جاء أوان تفريخها قالت الأنثى للذكر: لو التمسنا مكانًا حريزًا نفرخ فيه؛ فإني أخشى من وكيل البحر إذا مد الماء أن يذهب بفراخنا، فقال لها: أفرخي مكانك؛ فإنه موافق لنا، والماء والزهر منا قريبٌ، قالت له: يا غافل، ليحسن نظرك، فإني أخاف وكيل البحر أن يذهب بفراخنا، فقال لها: أفرخي مكانك؛ فإنه لا يفعل ذلك، فقالت له: ما أشدَّ تعنُّتَك! أما تذكر وعيده وتهديده إياك؟ ألا تعرف نفسك وقدرك؟ فأبى أن يطيعها، فلما أكثرت عليه ولم يسمع قولها، قالت له: إن مَن لم يسمع قول الناصح يُصِبْه ما أصاب السلحفاة حين لم تسمع قول البطتينِ، قال الذكر: وكيف كان ذلك؟."

وما تنتهي هذه القصة إلا وتبدأ القصة الأخرى: "زعموا أن غديرًا كان عنده عشبٌ، وكان فيه بطتانِ، وكان في الغدير سلحفاةٌ، بينها وبين البطتين مودةٌ وصداقةٌ، فاتفق أنْ غِيضَ ذلك الماء، فجاءت البطتان لوداع السلحفاة، وقالتا: السلام عليك، فإننا ذاهبتان عن هذا المكان؛ لأجل نقصان الماء عنه، فقالت: إنما يبين نقصان الماء على مثلي، فإني كالسفينة لا أقدر على العيش إلا بالماء، فأما أنتما فتقدران على العيش حيث كنتما، فاذهبا بي معكما، قالتا لها: نعم، قالت: كيف السبيل إلى حملي؟ قالتا: نأخذ بطرفي

عودٍ، وتتعلقين بوسطه، ونطير بك في الجو، وإياك إذا سمعت الناس يتكلمون أن تنطقي، ثم أخذتاها فطارتا بها في الجو، فقال الناس: عجبٌ؛ سلحفاة بين بطتين قد حملتاها".

ثانيًا: معظم شخصيات هذه القصص من الطيور والحيوانات، وهي بذلك تنتمي إلى عالم مجهول من الإنسان، ولكنه مشوق له على الدوام والاستمرار، فهو يستثير خيال القارئ بالإضافة إلى استثارة عقله؛ حيث يجد نفسه مطالبًا بإرجاع كل شخصية من الطيور والحيوانات إلى ما يشبهها في عالم البشر، فمثلًا الأسد رمز للملك، والنمر رمز للوزير، والثعلب للشخص الماكر، والحمامة للإنسان الطيب، وهكذا، كما كان ذلك في قصة الثور والأسد.

ثالثًا: كما يستخدم لغةً سهلةً ورشيقة، ويكاد يخلو تمامًا من الإملال؛ نتيجة استخدامه أسلوب الحوار، واعتماده أحيانًا على الفكاهة، كما ترى ذلك في "باب الحمامة المطوقة" أنهم يتحاورون ويتجاذبون أطراف الحديث، واحدًا بعد آخر: الحمامة، والغراب، والسلحفاة، والظبي، الجرذ، وكلامهم فيما بينهم على أسلوب أدبي سهل رشيق على طراز الحوار، لا تمل ولا تتعب إذا قرأت القصة من البداية إلى النهاية؛ لأنها تشتمل على الحِكَم والأمثال والنصائح والعِبَر.

فمثلًا ترى في هذا المقطع: فلمَّا فرغ الجرذ من كلامِه، أجابته السلحفاة بكلامٍ رقيقٍ عذبٍ، وقالت: قد سمعت كلامَك، وما أحسنَ ما تحدَّثت به! إلا أني رأيتك تذكر بقايا أمورٍ هي في نفسك، واعلم أن حسن الكلام لا يتم إلا بحسن العمل، وأن المريض الذي قد علم دواء مرضه إن يتداوِ به لم يغن به شيئًا، ولم يجد لدائه راحة ولا خفةً، فاستعمل رأيك، ولا تحزن لقلة المال؛ فإن الرجل ذا المروءة قد يكرم على غير مال؛ كالأسد الذي يهاب وإن كان رابضًا، والغني الذي لا مروءةَ له يهان وإن كان كثير المال؛ كالكلب لا

يحفل به وإن طوق وخلخل بالذهب، فلا تكبرنَّ عليك غربتك؛ فإن العاقل لا غربة له؛ كالأسد الذي لا ينقلب إلا ومعه قوته، فلتحسن تعاهدك لنفسك؛ فإنك إذا فعلت ذلك، جاءك الخير يطلبك كما يطلب الماء انحداره، وإنما جُعِل الفضل للحازم البصير بالأمور، وأما الكسلان المتردد، فإن الفضل لا يصحبه، وقد قيل في أشياء ليس لها ثباتٌ ولا بقاء: ظل الغمامة في الصيف، وخلة الأشرار، والبناء على غير أساس، والمال الكثير؛ فالعاقل لا يحزن لقلَّته، وإنما مال العاقل عقله، وما قدَّم من صالح، فهو واثق بأنه لا يسلب ما عمل، ولا يؤاخذ بشيءٍ لم يعمله، وهو خليقٌ ألا يغفل عن أمرِ آخرته؛ فإن الموت لا يأتي إلا بغتةً، ليس له وقت معين، وأنت عن موعظتي غنيٌّ بما عندك من العلم، ولكن رأيت أن أقضي ما لك من حقٍّ قِبلنا؛ لأنك أخونا، وما عندنا من النصح مبذول لك، فلما سمع الغراب كلام السلحفاة للجرذ وردها عليه، وملاطفتها إياه، فرح بذلك، وقال: لقد سررتِني وأنعمت عليَّ، وأنتِ جديرة أن تسرِّي نفسك بمثل ما سررتني به، وإن أولى أهل الدنيا بشدَّة السرور مَن لا يزال عنده منهم جماعة يسرهم ويسرونه، ويكون من وراء أمورهم وحاجاتهم بالمرصاد، فإن الكريم إذا عثر لا يأخذ بيده إلا الكرام؛ كالفيل إذا وحل لا تخرجه إلا الفِيَلَة".

فهذه القصة تدلُّ دلالة واضحة على أن الاتحاد والائتلاف والوئام يسبِّب خيبة الأعداء، وما ينالون إلا الخسران، ويرجعون صفر الأيدي؛ لأن الحمامة المطوَّقة والجرذ، والظبي، والغراب، بتواصلهم وتعاضدهم تغلَّبوا على قانص ينتاب إلى أرضهم سكاوند لصيدهم، لكنهم بمودَّتهم وثبات قلبهم، واستمناعهم بعضهم ببعض، تغلبوا على إنسان قد أعطي العقل والفهم، وألهم الخير والشر، فهو أحرى بهذا التواصل والتعاضد فيما بينه وبين بني جنسه.

رابعًا: ومادة الكتاب تمتلئ تمامًا بالحِكَم والأمثال التي تعتبر خلاصةَ آراء الفلاسفة وتجارب الشعوب القديمة، ويمكن للقارئ بسهولة أن يجد في كل زمان ومكان انعكاساتها الواضحة على حياته وعصره، كما ترى في المثال قبله من الأمثال والحكم عددًا كبيرًا.

خامسًا: علاوة على ذلك، إن هذا الكتاب يُمجِّد الفضائل الأساسية؛ كالوفاء، والكرم، والشجاعة، والعفَّة، وغير ذلك، ويدين الرذائل والشرور في شتى مظاهرها، ومن هنا صلح أن يستخدم هذا الكتاب كوسيلة جيدة من وسائل تهذيب أخلاق النشء وتربيته في مختلف العصور.

إلى ذلك نقدِّم مثالًا هنا، يدعو كليلة دمنة إلى التحلي بالفضائل، والتخلي عن الرذائل: "إن الخب والخديعة ربما كان صاحبها هو المغبون، وإنك يا دمنةُ جامعٌ للخب والخديعة والفجور، وإني أخشى عليك ثمرة عملك، مع أنك لست بناجٍ من العقوبة؛ لأنك ذو لونينِ ولسانين، وإنما عذوبة ماء الأنهار ما لم تبلغ إلى البحار، وصلاح أهل البيت ما لم يكن فيهم المفسد، وإنه لا شيء أشبه بك من الحية ذات اللسانين التي فيها السم، قد يجري من لسانك كَسُمِّها، وإني لم أزل لذلك السم من لسانك خائفًا، ولما يحل بك متوقعًا، والمفسدُ بين الإخوان والأصحاب كالحيَّة يربِّيها الرجل ويُطعِمها ويمسحها ويكرمها، ثم لا يكون له منها غير اللدغ، وقد يقال: الزم ذا العقل وذا الكرم، واسترسل إليهما، وإياك ومفارقتهما؛ واصحب الصاحب إذا كان عاقلًا كريمًا أو عاقلًا غير كريم؛ فالعاقل الكريم كاملٌ، والعاقل غير الكريم اصحبه وإن كان غير محمود الخَليقة، واحذر من سوء أخلاقه وانتفع بعقله، والكريم غير العاقل الزمه ولا تدع مواصلته، وإن كنت لا تحمد عقله، وانتفع بكرمه، وانفعه بعقلك، والفرار كل الفرار من اللئيم الأحمق، وإني بالفرار منك لجديرٌ، وكيف يرجو إخوانك عندك كرمًا وودًّا، وقد صنعتَ بملكك الذي أكرمك وشرفك ما صنعت؟".

أول قصة من الكتاب التي تُعرف بـ"باب الأسد والثور" تستغرق نصف الكتاب، وهو يوحي إلينا أن المكر والخديعة مرتعه وخيم؛ لأن دمنة لَمَّا رأى من مكانة الثور عند السلطان حاول أن يذلَّه ويخزيه ويهينه، فمكر لذلك، ونسج الحيل، ولم يحالفه النجاح في مكره وخديعته، فبلغ أخيرًا إلى عاقبة وخيمة، فقُتل في حبسه أشنع قِتلة.

سادسًا: الكتاب عامةً يصور بيئةَ الملوك والحكام والحاشية المحيطة بهم، ومن المعروف أن هذه البيئة تستهوي مزاج العامَّة، وتستميل قلوب الجماهير.

نقدم هنا مثالًا للعقل والفهم؛ لأن مَن يستخدم العقل والفهم يتغلَّب بذلك على ألد أعدائه، كما كان ذلك في قصة البوم والغربان.

كان في جبلٍ من الجبال شجرةٌ من شجر الدوح، فيها وكر ألف الغراب، وعليهن والٍ من أنفسهن، فخرج مَلِك البوم لبعض غدواته وروحاته، وفي نفس الملك العداوةُ لمَلِك الغربان، فأغار ملكُ البوم على الغربان في أوكارها، فقتَل وسبى منها خلقًا كثيرًا، فاجتمعوا إلى ملكِهم للمشاورة، فقلن له: قد علمتَ ما لقينا الليلة من ملك البوم، وما منا إلا مَن أصبح قتيلًا، أو جريحًا، أو مكسور الجناح، أو منتوف الريش، أو مقطوف الذَّنَب...، فإنما نحن لك، ولك الرأي أيها الملك، فقدم من الغربان أحد مَن اعترف لهن بحسن الرأي...، وأما القتال، فقد علمت رأيي فيه، وكراهتي له، ولكن عندي من الرأي والحيلة ما يكون فيه الفرج إن شاء الله...، إني أريد من الملك أن ينقرني على رؤوس الأشهاد، وينتف ريشي وذنبي، ثم يطرحني في أصل هذه الشجرة، ويرتحل الملك هو وجنوده إلى مكان كذا، فأرجو أن أطَّلع على أحوالهم، ومواضع تحصينهم وأبوابهم فأخادعهم وآتي إليكم لنهجم عليهم، وننال غرضنا إن شاء الله...، ففعل الملك بالغراب ما ذكر، ثم ارتحل عنه، فجعل الغراب يئن ويهمس حتى رأَتْه البوم وسمعته يئن، فأخبرن ملكهن بذلك،

فقصد نحوه ليسأله عن الغربان، فلما دنا منه أمر بومًا أن يسأله، فقال له: من أنت؟ وأين الغربان؟ فقال: أما اسمي، ففلان، وأما ما سألتني عنه، فإني أحسبك ترى أن حالي حال مَن لا يعلم الأسرار، فقيل لملك البوم: هذا وزير ملك الغربان وصاحب رأيه، فنسأله بأي ذنب صنع به ما صنع؟ فسئل الغراب عن أمره، فقال: إن ملكنا استشار جماعتنا فيكنَّ، وكنت يومئذٍ بمحضرٍ من الأمر، فقال: أيها الغربان، ما ترون في ذلك؟ فقلت: أيها الملك، لا طاقة لنا بقتال البوم؛ لأنهن أشد بطشًا، وأحدُّ قلبًا منَّا، ولكن أرى أن نلتمس الصلح، ثم نبذل الفِدية في ذلك، فإن قبِلَت البوم ذلك منَّا، وإلا...، فالصلح أفضل من الخصومة، وأمرتهنَّ بالرجوع عن الحرب، وضربت لهن الأمثال في ذلك، وقلت لهن: إن العدوَّ الشديد لا يردُّ بأسه وغضبه مثل الخضوع له، فعصينني في ذلك وزعمن أنهن يردن القتال واتهمنني فيما قلت، وقلن: إنك قد مالأت البوم علينا، ورددنَ قولي ونصيحتي، وعذبنني بهذا العذاب، وتركني الملك وجنوده وارتحل، ولا علم لي بهن بعد ذلك، فلما سمع ملك البوم مقالة الغراب قال لبعض وزرائه: ما تقول في الغراب؟ وما ترى فيه؟ قال: ما أرى إلا المعاجلة له بالقتل...، وأشار الباقون بالرحمة، والاستبقاء والصفح عنه...، فأمر الملك بالغراب أن يحمل إلى منازل البوم ويكرم وتستوصى به خيرًا...، فلم يلتفت ملك البوم إلى وزيره الأول الذي أشار بقتله، ورفق بالغراب، ولم يزد له إلا إكرامًا، حتى إذا طاب عيشه، ونبت ريشه، واطلع على ما أراد أن يطلع عليه، فأتى أصحابه بما رأى وسمع...، وقال: إن البوم بمكان كذا في جبل كثير الحطب، وفي ذلك الموضع قطيع من الغنم مع رجل راعٍ، ونحن مصيبون هناك نارًا، ونلقيها في أنقاب البوم، ونقذف عليها من يابس الحطب ونتراوح عليها ضربًا بأجنحتنا حتى تضرم النار في الحطب، فمن خرج منهن احترق، ومن لم يخرج مات

بالدخان موضعه، ففعل الغربان ذلك، فأهلكن البوم قاطبةً، ورجعن إلى منازلهن سالمات آمنات.

فعلم من هذه القصة أن المخلوق الضعيف بعقله وذكائه وحيلته ومكره يتغلب على الجنود الكثيرة من ذوي البأس والنجدة والعَدد والعُدَّة.

سايعًا: إن مترجمه الذكي ابن المقفع قد كساه في طابع ديني واضح جدًّا في لغته العربية التي تشيع فيه ألفاظ الرضا بالمقدور، وأحوال الدين والدنيا، والآخرة والأولى، وهذا في رأينا ما جعل الكتاب يدخل بسرعة في بناء الثقافة الإسلامية، ويصبح على الرغم من أصله الأجنبي مَعْلمًا للثقافة الدينية.

هذه العبارة تشير إلى ما أعطاه المترجم طابعًا دينيًّا، وصبغه في الصبغة المذهبية: "إن القضاء إذا نزل صرف العيون عن موضع الشيء، وغشَّى البصر، وإنما صرف القضاء أعيننا عن الشرك، ولم يصرفها عن هذا الكنز، فاحتفرت واستخرجت البرنية وهي مملوءة دنانير، فدعوت لهما بالعافية، وقلت لهما: الحمد لله الذي علَّمكما ما لم تعلما، وأنتما تطيرانِ في السماء، وأخبرتما ما تحت الأرض، قالا لي: أيها العاقل، أمَا تعلم أن القَدَر غالب على كل شيء، ولا يستطيع أحد أن يتجاوزه، وأنا أخبر الملك بذلك رأيته، فإن أمر الملك أتيته بالمال فأودعته في خزائنه، فقال الملك: ذلك لك، وموفَّر عليك".

أغراض تأليف الكتاب ومقاصده في ضوء مقدمة ابن المقفع:

إلى هذه الأغراض والغايات والمقاصد والخصائص لهذا الكتاب يشير ابن المقفع؛ لأن المترجِم بعد مؤلف أي كتاب يعي جيدًا أهمية الكتاب ويدري مكانته وخصائصه؛ لأنه لا يقدم على ترجمة أي كتاب إلا بعد أن يكون قد أدرك قيمة الكتاب في اللغة الأم، وهو بنفسه يصرح إلى هذه الغايات

والأهداف والخصائص لهذا الكتاب التي أثارته إلى ترجمته، ونقله إلى العربية:

فقد أشار إلى كثير من الأشياء التي تسبَّبت في اختياره إلى ترجمة الكتاب، وهو ينبه القارئ لكي يستفيد بالكتاب حق الاستفادة، نقدم إلى ما وصل إليه ابن المقع من المقاصد والأهداف في النقاط التالية:

أولا: يقول في موضع مشيرًا إلى سبب وضع العلماء الهنود مثل هذا الكتاب:

هذا كتاب كلية ودمنة، وهو مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي أرادوا.

ثانيًا: وهو يُوضِّح مضمون الكتاب الأصلي، ويصرح بأنه يتمثل في "الحكمة"، وقد عرضها صاحب الكتاب بحيث يجذب الخاصة والعامة على السواء؛ "فاختاره الحكماء لحكمته، والسفهاء لِلَهْوِه، وبالنسبة إلى المتعلم الناشئ، فإنه يتقبله في البداية بسهولة، لكنه عندما يكبَرُ وينضج يدرك أنه يمتلك بالفعل كنزًا من كنوز الحكمة، فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة، عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب".

ثالثًا: كذلك يدعو ابن المقع قارئ الكتاب إلى التفكر والتدبر في مقاصد الكتاب، التي لأجله تم وضع الكتاب على ألسنة الحيوانات والطيور، فيقول" :ينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وضعت له، وإلى أي غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم، وأضافه إلى غير مفصح، وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالًا؛ فإن قارئه متى لم يفعل ذلك، لم يدرِ ما أُريد بتلك المعاني، ولا أي ثمرة يجتني منها، ولا أي نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه الكتاب، وإنه وإن كان غايته استتمام قراءته إلى آخره، دون معرفة ما يقرأ منه، لم يَعُدْ عليه شيء يرجع إليه نفعه.

رابعًا: ويتبين أن المقصود هو المضمون من كتاب كليلة ودمنة، وأن الشكل بالتالي ما هو إلا وسيلة لتوصيل هذا المضمون إلى القراء، يقول ابن المقفع: "وقد ينبغي للناظر في كتابنا هذا ألا تكون غايته التصفح لتزاويقه، بل يشرف على ما يتضمن من الأمثال، حتى ينتهي منه، ويقف عند كل مَثَل وكلمة، ويعمل فيه رويته"".

خامسًا: ثم بعد ذلك مما يؤكِّد عليه ابن المقفع ويدعو القارئ بعد أن يدرك مقاصد الكتاب وأغراضه الأساسية أن يُطبِّقها في حياته العملية؛ لأن العلم لا يتم إلا بالعمل، وهذا هو مفهوم الحكمة عند الفلاسفة والمفكرين، فيقول: إن العاقل إذا فهِم هذا الكتاب وبلغ نهاية علمه فيه، ينبغي له أن يعمل بما علم منه لينتفع به، ويجعله مثالًا لا يحيد عنه".

وهو يشير إلى أهمية العمل مع العلم هكذا: "وأقل الناس عذرًا في اجتناب محمود الأفعال وارتكاب مذمومها – مَن أبصر ذلك وميَّزه، وعرف فضل بعضه على بعض، كما أنه لو أن رجلينِ أحدهما بصيرٌ والآخر أعمى، ساقهما الأجل إلى حفرة فوقعا فيها، كانا إذا صارا في قاعها بمنزلةٍ واحدةٍ، غير أن البصير أقل عذرًا عند الناس من الضرير؛ إذ كانت له عينان يبصر بهما، وذاك بما صار إليه جاهل غير عارف".

ويقول أيضًا: "وعلى العالم أن يبدأ بنفسه ويؤدِّبها بعلمه، ولا تكون غايته اقتناءه العلم لمعاونة غيره، ويكون كالعينِ التي يشرب منها الناس ماءها، وليس لها في ذلك شيءٌ من المنفعة، وكدودةِ القز التي تحكم صنعته ولا تنتفع به، فينبغي لمن يطلب العلم أن يبدأ بعِظَة نفسه، ثم عليه بعد ذلك أن يقبسه".

ولأهمية الكتاب وما يحتويه من خصائص وميزات وغايات وأهداف، فقد لقي رواجًا كبيرًا في الأوساط العلمية عبر المعمورة، فقد أدخلت حكاياته في المقررات الدراسية في الجامعات العربية والمدارس الإسلامية في الهند

وخارجها من البلاد، وقراءة هذا الكتاب مرارًا وتكرارًا يجعل القارئ بارعًا ونابغًا في اللغة العربية.

****

بعض كتب التراث

هذه قائمة مبدئية بأسماء أهم كتاب في التراث العربي القديم..وهذه الكتب هي:

المعلَّقات السبع (شرح الزَّوْزَني)

كليلة ودمنة لابن المقفع

السيرة النبويه لابن إسحاق

كتاب سيبويه

ديوان أبي نواس

الرسالة للشافعي

المغازي للواقدي

طبقات فحول الشعراء لابن سلام

الطبقات الكبري لابن سعد

ديوان الحماسة لأبي تمام

ديوان أبي تمام

الجبر والمقابلة للخوارزمي

الحيوان للجاحظ

رسائل الجاحظ

صحيح البخاري

عيون الأخبار لابن قتيبة

فتوح البلدان للبلاذري

الأخبار الطّوال للدينوري

ديوان ابن الرومي

ديوان البحتري

الكامل للمبرّد

تفسير الطبري

تاريخ الطبري

الحاوي لأبي بكر الرازي

الزِّيج للبَتَّاني

مقالات الإسلاميين للأشعري

العقد الفريد لابن عبد ربه

مروج الذهب للمسعودي

ديوان المتنبي

المواقف للنَّفَّري

كتاب الأغاني لأبي الفرج

الأمالي للقالي

ديوان أبي فراس الحمداني

رسائل إخوان الصفا

نشوار المحاضرة للتنوخي

الفهرست لابن النديم

أعمال الهندسة للبوزجاني

أحسن التقاسيم للمقدسي

الخصائص لابن جنِّي

الامتاع و المؤانسة للتوحيدي

المقابسات للتوحيدي

الهوامل و الشوامل للتوحيدي ومسكويه

تجارب الأمم لمسكويه

القانون في الطب لابن سينا

الإشارات والتنبيهات لابن سينا
كتاب المناظر لابن الهيثم
تحقيق ما للهند للبيروني
اللزوميات لأبي العلاء
الأحكام السلطانية للماوردي
طوق الحمامة لابن حزم
الفُصَل في الملل والنحل لابن حزم
المُحَلَّي لابن حزم
الرسالة للقشيري
أسباب نزول القرآن للواحدي
أنباء أهل الأندلس لابن حيان القرطبي
أسرار البلاغة للجرجاني
سيرة المؤيّد في الدين بقلمه
شرح كتاب السِّيَر للسَّرَخْسي
إحياء علوم الدين للغزالي
المنقذ من الضلال للغزالي
تهافت الفلاسفة للغزالي
مقامات الحريري
أمثال الميداني
الكشَّاف للزمخشري
الملل والنَّحل للشهرستاني
نزهة المشتاق للإدريسي
حي بن يقظان لابن طفيل
كتاب الاعتبار لابن منقذ

فصل المقال لابن رشد
تهافت التهافت لابن رشد
المنتظم لابن الجوزي
رحلة ابن جبير
معجم البلدان لياقوت
معجم الأدباء لياقوت
الكامل في التاريخ لابن الأثير
الفتوحات المكية لابن عربي
مقدمة ابن الصلاح
شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة
تفسير القرطبي
وفيات الأعيان لابن خلكان
تنقيح الأبحاث لابن كمّونة
شرح تشريح القانون لابن النفيس
الحكم العطائية لابن عطاء الله
لسان العرب لابن منظور
جامع الرسائل لابن تيمية
نهاية الأرب للنُّويري
رحلة ابن بطوطة
الإحاطه لابن الخطيب
مقدمة ابن خلدون
صبح الأعشى للقلقشندي
السلوك للمقريزي

الخطط المقريزية

بدائع السِّلك لابن الأزرق

الإتقان في علوم القرآن للسيوطي

المُزْهِر للسيوطي

نفح الطيب للمقّري التلمساتي

ألف ليلة وليلة

عجائب الآثار للجبرتي

****

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٣
٢	الفصل الأول: في معرفة المخطوطات	٤
٣	الفصل الثانى: كتب تراثية	٢٠
٤	الفهرست	١١١